شيعةُ لبنان

والمُنطلَقُ الحقيقي لتاريخه

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب : شيعةُ لبنان والمُنطلقُ الحقيقيّ لتاريخه

المؤلف : الشيخ د. جعفر المهاجر

الناشر : دار بهاء الدين العاملي

بعلبك . لبنان هاتف : ٠٠٩٦١٨٣٧٧٧٥٦

البريد الألكتروني : Jmohajer@terra.net.LB

الطبعة الأُولى

١٤٣٤ هـ / ٢٠١٣م

شيعةُ لبنان

والمُنطلَقُ الحقيقيّ لتاريخه

الشيخ د. جعفر المهاجر

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرست الموضوعات

—

—

بســــــــم الله الرحمن الرحيم

المقدمـة

(١)

بُغيتي في الصفحات التالية ، أن أسرُدَ القصّةَ المؤثرةَ لأعرقِ مكوّناتِ التركيبةِ السكّانيّةِ التي تنزلُ رُقعةً من غربِ "الشام" . اكتسبت استقلالَها السياسي قبل قرنٍ تقريباً تحت اسم "الجمهوريّة اللبنانيّة" ، نسبةً إلى قلبها الجغرافي والسياسي جبل "لبنان" . أعني الشيعةَ من مواطني هذه الجمهوريّة . واخترتُ لهذه "القصّة" اسماً "**شيعة لبنان**" من بين خياراتٍ أُخرى عبرتْ الذهن ، لأنني رأيتُه مؤدّياً لفكرة الكتاب ، خفيفاً على السَّمْع واللسان . ثم رأيتُ أنّ الجزءَ الأكبرَ من تاريخِهِ دارَ بهؤلاء الشيعة أوعليهم ، فأضفتُ إلى اسم الكتاب "**والمنطلقُ الحقيقيّ لتاريخه**" . وكلاهما ممّا تجاهلهُ أشباهُ المؤرّخين . لطالما تجاهلَ هؤلاء أن قد كان على هذه الأرض منذ القِدَم قومٌ هم الذين بنوه ، بأكثر من معنى من معاني البناء . ولطالما تجاهلوا أنّنا ، إن نحن تقبّلنا مبدئيّاً فكرةَ أنّ هناك ما يُسمّى (مُنطلقات) في التاريخ ، فإنّ علينا أن لا ننفخَ بعضَ الأحداثِ والرجالِ لنمنحهم حجماً فارغاً نملأُ به تاريخاً أجوفاً . في مقابل

السكوت الكامل عن أدوارٍ وأبطالٍ ، لها ولهم من الأثر ما يزالُ حيّاً حتى اليوم .

خطّتي أن أحكي للقارئ قصّةً في الزمان والمكان . وصولاً بمَسارِها إلى مَشارفِ الصورةِ السكّانيّةِ والثقافيّةِ والاجتماعيّةِ القائمةِ الآن لأبطالِها . وأنا لا أكتمُ القارئَ أنني ، وأنا أخطّ هذه الكلمات ، أُفصحُ بها عن سريرتي وقصدي ، لست متأكّداً الآن من أنّني سأصلُ في نهاية السعي إلى عرْضِ قصةٍ محبوكةٍ بكامل تفاصيلها تحكي واقعَ الحال مثلما كان ، بحيث تكون وسيلتي لأُعدي القارئَ بحَدْسي .

ذلك أنني أثناءَ ثلث قرنٍ أو يزيدُ قليلاً من التنقيب والتأمّل في مُختلف المُصنفات ذات العلاقة بالموضوع ، نجحتُ في أن أصِلَ إلى حَدْسٍ جليٍّ ومُنسجمٍ على سلسلة الإشكاليّات التي يُجمِلُها ويتضمّنُها عنوانُ الكتاب. ولكن أنْ أُعْدي القارئ بما حصلتُ عليه بفضل البحث والتأمّل الدائبَين كل هاتيك السنين، فذلك شأنٌ آخر. الحدسُ العلميُّ حالةٌ إبداعيّةٌ تُضيءُ عقلَ صاحبه بلحظةٍ . لكنّ هذه اللحظة ما كانت لتحصل لولا التأمّل الطويل وتراكم الملاحظاتِ في الذهن ، تاركاً للعقل أن يطبخَها بهدوءٍ حتى في غفلةٍ عن صاحبه . أُريد أن أقول أنّ هذا الحدْس هو مِلكٌ حصريٌّ لصاحبه ، ليس من السهل أن ينقلَه إلى قارئٍ غافلٍ عن الموضوع . منطقُ البحث ، بوصفه تركيباً للجُزئيّات ذات الصّلة ، له أُصولُه المُحرّرة ، هو

أمرٌ مختلفٌ جذريّاً عن حالة الحدس. وإن يكن يهتدي به ، بحيث يمكن القول أنه لولاه لَما تكوّن الحافزُ لدى الباحث لجمع المعلومات وتركيبها .

الباحثُ وهو يُركّبُ إنما يهتدي بما لديه من حدسٍ سابق . ولكنّه وهو يفعل محكومٌ للمادّة التاريخيّة الخام التي بين يديه ، ومدى وفائِها بكل عناصر القصّة . فهذا اعتذارٌ من القارئ عمّا قد يجده من ثغرات في قصّة " شيعة لبنان " .

(٢)

هاهنا سؤالٌ لا بدّ من طرحه والجواب عنه قبل أي كلام :

ما الذي يُبرّرُ و يُسوّغُ أطروحةَ هذا الكتاب / المشروع الآن ؟

أليس الاهتمام بالتأريخ لكل طائفةٍ طائفةٍ من طوائف المجتمع اللبناني تعزيزاً للانقسام الطائفي ؟

أليس إحياءُ ذلك التاريخ على نحوٍ مجزوءٍ سينتهي إلى استحضار ما حفِلَ به تاريخ بلدنا من صراعاتٍ دامية إلى الذّاكرةِ الجمْعيّة ، وقاعدةً لاستنبات المزيد من المآسي ؟

السؤال بنفسه مشروعٌ ولا ريب . ولكن أصلَ المعضلة ليست في التأريخ وفي عمل المؤرّخ عليه ، بل في حقائق التاريخ الموضوعيّة التي تسكنُ الذّاكرة الجماعيّة . ثم أنّها في المنهج الذي جرى اعتمادُه حتى الآن في صياغة (تاريخنا) الرسمي .

أصلُ المعضلةِ هو فيما جرى تركيبُ الكيان السياسي لـ "الجمهوريّة اللبنانيّة" منه أرضاً وبشراً. أي في المادّة التي عُجنتْ

منها طينةُ الجمهوريّة الجديدة. وما هي إلا الجماعات السُكانيّة التي تعمرها. حيثُ لكلٍّ منها تاريخُها الخاص المنفصل . المُركّبُ من لحظةِ وكيفيّةِ نزولِها هذا الجزء أو ذاك من الأرض ، مع ما حملته كلٌّ منها من ذاتيّاتها . ومنها طبعاً ثقافتها الخاصة بكلّ مكوّناتها وما تنطوي عليه من حوافز سلوكيّة . وفي أنّها غالباً لم تتواصل إلا فيما نشب بينها من نزاعات دمويّة وغير دموية . وليس ذلك بنفسه بالأمر البِدْع ولا النادر. وليس تأثيرها السيّء المُتمادي بالقدور المقدور الذي لامفرّ منه . فهناك دُوَلٌ كثيرةٌ توافقتْ على صيغةٍ جامعةٍ بعد طول نزاع . ولكنّ خطيئتنا الكبرى أنّ مشروعَ الجمهوريّة عندنا أتى بوصفه مشروعَ غَلَبَة .

نخالُ أنّ هذه المُعضلة كانت أمامَ أربابِ الكيان السياسي الجديد لـ " الجمهورية اللبنانيّة" . ونخالُ أنّهم لم يروا إليها إلا بوصفها عقبةً صغيرةً في الطريق إلى صياغة وإقرار ما سيُعتمَدُ من تاريخٍ رسميٍ للكيان الوليد ، من ضمن خطّةٍ أساسيّةٍ تعملُ على تأصيله ومنْحِه العُمقَ في الزمان وفي المكان . ومن ضمن ذلك طبعاً وضعُ الأساطير المؤسّسة . وبما أن المُخيّلةَ السياسيّةَ لأولئك الآباء ، رُعاة ولادة الكيان العتيد ، كانت تحت تأثير وهْمِ دولةٍ دائمةٍ تجمعُ شملَ مسيحيي الشرق ، فإنّهم لم يجدوا أدنى صعوبةٍ دون إزاحة كلِ تاريخٍ لا يمنحُ شرعيّةً تاريخيّةً لمشروعهم .

أو بأن يكون ، على الأقل ، قابلاً للدمج في النسب التاريخي المزعوم للمشروع .

هكذا نبتَ التاريخُ الرسميُّ لـ "الجمهوريّة اللبنانيّة" ، محصوراً ومُحاصَراً بمُنتخباتٍ مختارةٍ ممّا هو مقبولٌ ومناسبٌ ، بل وكثيراً مُختلَق ، للمشروع من (تاريخ) جبل "لبنان" حصْراً. على حساب إلغاءَ تاريخ أربعة أخماس الوطن أرضاً وبشراً .

الذريعة المُعلنَة لهذا التمييز هو أنّ تاريخَ الجماعات الأُخرى مهما يكُن بانياً ونبيلاً ، هو تاريخٌ طائفةٍ بعينها وليس تاريخاً وطنيّاً . ثم أنّ منحَه صفة الرسميّ وما يستتبع ذلك ، سيكون بمثابة تحضيرٍ وتحريضٍ على الفتن .

من السهل جدّاً تدبيج المطوّلات ، بياناً لِما في تلك السياسة من مُفارقةٍ مقصودة ، وبياناً لِما في فذلكتِها من بؤس . ولكن إذا نحن تجاوزنا ما وراءَ الأُطروحة من نوايا ومقاصد ، ووقفنا وقفةً نقديّةً من فذلكتها ، لرأينا كم هي مُجانبةٌ للصواب ، وكم هي بعيدةٌ عن الفهم الصحيح للسلوك البشري ومنازعه .

إن تاريخَ أيّ أُمّةٍ هو مجموع تاريخات . الأمرُ الجامعُ بينها هو أن موضوعَها الجماعةُ و/ أوالأرضُ . وتناوُلُ مادتها على نحوٍ إنتقائيٍّ ، مع الزّعم أنّ هذا هو التاريخ ولا شئ غيره ، هو هرطقةٌ في مفهوم الكتابة التاريخيّة . نعم ، من الممكن ، بل من الضروري

أحياناً ، إيلاءُ الاهتمام لدراساتٍ جزئيّةٍ منفصلة تحليليّاً ، مقدّمةً لدمجها في الكلّي .

ثم أنّ من السذاجة المُفرطة أن نتصوّرَ أنّ الذّاكرةَ الجَمْعيّةَ مرهونةٌ بالمعرفة الواعية . وأنّنا إذا كتمنا عنها أسبابَها (المعرفة) سنُحرّرُها ممّا سكن فيها نتيجةَ خبراتِها العمليّة خصوصاً القاسية منها . بل الحقيقةُ أن هذا الخبرات ستبقى حيّةً حتى بعد أن تُنسى أسبابُها وتضيعَ من ذاكرة الأفراد . وستظلُّ تبنى المواقفَ من الآخَرَ، إن خيراً وإن شراً، إن وفاقاً وإن خصاماً. الذاكرةُ الجَمْعيّة هي جزءٌ من الثقافة الشعبيّة ، تتحرّكُ بقوانينها الخاصة بها، ولا تخضعُ للبُنى الفوقيّة التي نعملُ عليها نحن أهلَ البحث والنظر. بل ربما كان تجاهلُها من قِبَلهم في الثقافة الخاصّة المُبرمَجة ما يمنحُها فرصةَ النموّ في الظلام ، مثلما ينمو الداءُ العُضالُ في غيبةِ الدواءِ والمُداوي .

لسنا الأمّةَ الوحيدةَ التي مرّت مُكوّناتُها بمثل ما ابتُلينا به في تاريخنا القريب والبعيد . الشعوبُ الأوروبيّةُ ، مثلاً ، خاضت ضدَّ بعضِها البعض في القرن الماضي حربين مهولتَين ، قُتل فيهما الملايينُ من أبنائها ، ودُمّرتْ مُدُنٌ بأكملها . ومع ذلك فإنّنا لم نسمع مَن يُنادي بإلغاء ذلك الجزءِ من تاريخها الرّسمي . بل إن شعوبَها التي اقتتلتْ بالأمس ذلك الاقتتالَ الذي جعلَ من العالَم كلّه ميداناً لها ، نراها اليوم وقد توحّدت بعد عدّة عقود باختيارها الحرّ.

وما من ريبٍ في أنّ جزءً من الفضل في هذا الإنجاز البديع يعودُ إلى أن مؤرّخيها وقادةَ الفكر فيها لم يتعاملوا مع ذلك الجزء المظلم من تاريخها تعامُلَ النعامة إذ ترى الخطرَ القادم . بل درسوه وبيّنوا أسبابه وجعلوا منه عبرةً أمام شعوبها . وهذا درسٌ لنا حقيقٌ بأن نقرأَه ونستعيدَه .

إنّ البابَ المُفضي إلى المخرَجِ الوحيدِ من أزمتنا المُستحكمة، التي لا تنفكُّ تُعبّرُ عن نفسها بهذا الإيقاع الثابت لانفجار العنف كلّ بضع عقود ، هي أوّلُ في أن نقرأ تاريخنا قراءةً مختلفة ، شاملةً أولاً وإنسانيّة ثانياً . حيث "**شاملة**" تعني أنّها لا تُلغي أي طيفٍ ، ولا أقول طائفة ، من أطياف المجتمع اللبناني . وحيث "**إنساني**" تعني أنها تصبُّ عنايتها على الإنسان ، في مقابل التاريخ السلطوي . الإنسانُ العاديُّ وهو يضطربُ في شؤون الحياة ، ساعياً ومفكراً ومُنتجاً ومُبدعاً وأميناً على الثقافة وعاملاً على التسامي بها . . الخ. هو الصانعُ الحقيقي لحركة التاريخ . أمّا السلطة في تاريخنا فإنّها غالباً ، بل وغالباً جدّاً ، كائنٌ استلابيٌّ طفيليٌّ لحركة التاريخ ، يملؤه قسوةً وظلماً وانحطاطاً .

من أشدّ الأُمورِ إثارةً للعجب والاستهجان ، أنّ الذين عملوا على صياغةِ التاريخ الرسميّ لبلدنا ولقّنوه لأبنائنا ، قد حشوه برموزٍ انتخبوها من أسوأ نماذج السلطة قسوةً وانحطاطاً . منحوها ، ويا للغرابة ، دوراً وطنياً تاسيسيّاً مزعوماً. ثم ها نحن نراهم يتساءلون

ويُنقّبون عن علّة ضعف وهشاشة الاندماج الوطني لمكوّنات شعبنا ، لحساب أشكال الانتماء الطوائفي ذات السّطوة . وعن علّة هذا الإيقاع العُنفي . دون أن يُدركوا أنّهم هم الذين أسّسوا آساسَ الانحراف ، ذلك حيث نصّبوا أمام الأجيال نماذجَ زعموها أبطالاً . وما هم إلا مقاطعجيّة قَتَلة شرهون غرقوا وأغرقوا شعوبهم في البؤس والدماء . في حين غيّبوا منه كلّ النماذج الإنسانيّة النبيلة ، التي لا يخلو منها تاريخُ أي طيفٍ من أطياف مجتمعنا .

(٣)

إن الفكرةَ الأساسيّةَ المُحرّكة وراء هذا الكتاب هو كتابةُ تاريخٍ إنسانيٍّ غير مسبوقٍ لِطَيْفٍ من أطياف مجتمعنا. إن أنا وُفّقتُ إلى مُرادي ، فسيكونُ عملي أشبهَ بتمرير ضوءِ الشمسِ في موشور، فيُحلّلهُ إلى أطيافه دون أن يُلغيه . إنّني على يقين من أنّ مثل هذا المشروع ممكنٌ بالنسبة لكلِّ أطياف مجتمعنا . ضرورةَ أنّه ما من تجمُّعٍ بشريّ سكونيّ خامدٍ تجاهَ عمل مؤرّخٍ يُحسِنُ قراءةَ مختلف ضروب النشاط الإنساني ، ويُحسنُ تركيبَها في قصّةٍ محبوكة . كما أنّني على يقينٍ أيضاً من أنّنا في نهاية السعي سيكونُ من الممكن ، بل ومن الضروري جدّاً ، أن نكتبَ تاريخاً جامعاً يُحرّرُ ذاكرتنا من إرث آثام التاريخ السلطوي . سيكون هذا أشبه بعكس تأثير الموشور، يُظهرُ الضوءَ المُنير دون أن يُلغي أطيافَه .

المُهمّة ليست سهلةً بالتأكيد . كتابةُ التاريخ الإنساني ليست مُجرّد عمل أكاديمي نظريٍّ ، يمكنُ لأيّ مُغامرٍ أن يتصدّى له . بأن يُقمّشَ مادّةَ عمله من مصادرِها في كُتُب التاريخ الحَدَثي ومُختلف الوثائق ، ثم يُركّبها بالتسلسل الذي حدثتْ فيه ، كما جرى ويجري عليه كثيرون. وبذلك يؤدّي قسطه للعُلى ، بوصفه أميناً على الصّلة بين ما هو من ذات القارئ المعنويّة وبين منابعِها . بل هي (كتابةُ التاريخ الإنساني) حصراً من عمل إنسانٍ مُنتمٍ إلى ما يؤرّخُ له ، مسكونٍ بحدْسٍ واضحٍ حيٍّ لحركة النشاط البشريّ وموقع مفرداته . من دون ذلك سيكون عمله برّانيّاً فاقدَ الروح ، مهما تفنّنَ المُتفنّنون في تدبيجه وتزيينه . ولكم رثيتُ لأولئك الذين يكتبون ما يزعمون أنّه تأريخٌ ، استناداً إلى فكرةٍ مُسيطرة يخدمونها ، أو فقط إلى معلومات قمّشوها من الكُتُب . إن أقلّ مصادرِ التاريخ الإنساني الحقيقي قيمةً هي ما في كُتُب التاريخ الحَدَثي ، السُّلطوي بالضرورة ، التي يعتمدُها المؤرّخون غالباً . بينما أكثرُها أهميّةً تكمنُ في الأدب والسيرة والأدبيّات الدينيّة بأنواعها والجغرافيا / البلدان والرحلات . ولذلك فإنّ العملَ عليه يقتضي ، طبعاً بالإضافة إلى الحدْس المُوجّه ، معرفةً واسعةً بمكتبة هذه المعارف . ولذلك ، فيما أحسَبُ ، يندرُ عندنا المعنيّون بهذا الفن السّامي من فنون الكتابة التاريخيّة .

(٤)

أرجو أن لا أكون قد أثقلتُ على القارئ بهذه المقدّمة الطويلة المُعقّدة . والحقيقةُ أنّني لم أضعْها مقدمةً لمتن الكتاب ، الذي أفترَضُ أن يكونَ موجزاً سهلَ التناول، إلا اعتقاداً مني بضرورة كل فكرةٍ فكرةٍ منها . ما كان منها نقديّاً ، يرمي إلى تحرير عقل القارئ من التشويه المُتَعمّد الذي ارتُكبَ بحقّه . ثم ما كان منها منهجيّاً ، يرمي إلى بيان المنهج الذي سيلتزمه المؤلفُ في معالجة موضوع الكتاب . وأنا أرجو القارئ أن يقرأ هذه المقدمة بإمعان . فإن هو وجَدَ أفكارها على حدٍّ مقبولٍ من الوجاهة والإقناع ، فليُتابع قراءةَ المتن . وإلا فما عليه إلا أن يُطبقَ الكتاب وينصرفَ عنه . وأنا على ثقةٍ منذ الآن بأن قارئي لن يخلو أن يكونَ واحداً من هذين الاثنيّن .

والحمد لله رب العالمين

بعلبك في ١٥شوال ١٤٣٤هـ

١ أيلول ٢٠١٢ م

الفصل الأول

ـ

الصورةُ السُّكّانيّة

(١) السرّ المكتوم في تاريخ لبنان

من غرائبِ تاريخِ "لبنان" وأسرارِهِ المكتومة ، على وُضوحِها وقوّتِها ، أنّه في مرحلةٍ من مراحله ، هي هذه المُستمرّةُ بكافةِ عناصرها حتى اليوم ، يبدأُ من الصّفر. رقعةٌ من الأرض شبهُ خاليةٍ من السُّكّان ، تمتدُّ طولاً على ساحل البحر من شمال "طرابلس" حتى جنوب "صور" ، وعرضاً من شرق "بعلبك" إلى الساحل .

تلك المرحلة هي الفتح الإسلامي .

ذلك أنّ من أكبر نتائج هذاالفتح على الصعيد السُّكّاني ، أنّه بدأَ على الأثر حالةَ نزوحٍ هائلةٍ من السُّكّان الأصليين روماً وعرباً . اتجهتْ إلى "الأناضول" و"آسية الصغرى" . فبعد أن خاضَ الجيشُ الروميُّ الجرّار مع المسلمين ثلاثَ معارك كبرى هي "أُجنادَيْن" و "مرج الصُّفّر" و "اليرموك" ، وبينها الاستيلاءُ على عاصمته الإقليميّة "دمشق" ، فضلاً عن معارك أُخرى أقلّ أهميّةً نشبتْ في "الأُردُنّ" ووسط "سورية"، خسرها جميعها ، . لم يبقَ أمامَه إلا الجلاءُ عن "الشام" ، مُتجهاً إلى الرقعة الرئيسة لدولته وعاصمتها

"القسطنطينيّة" "Constantinople". وكان أن تبعته جموعُ القبائل اليمانيّة الغفيرة المُتنصِّرة غسان ولخم وجُذام وعاملة وربما غيرُها ، بعد أن شاركتْ الرومَ مُشاركةً قويّةً الرومَ في قتال المسلمين .

فإمّا أن هؤلاء الذين نزحوا في أعقاب الفلول الرّوميّة لم يروا في الفتح الإسلامي غير غزوةٍ أُخرى بدويّةٍ للحَضَر . خرج فيها الأعرابُ من الصحراء غُزاةً تُحرّكهُم شهوةُ السلب والنهب . حتى إذا امتلأت أيديهم بها انكفأوا عائدين إلى صحرائهم ، كما حدثَ غيرَ مرّةٍ من قبل . وإمّا أنّهم اعتقدوا أن الدولة الرّوميّة الجبّارة لن تسكتَ على خسارة "سوريّة" ، جوهرةِ إمبراطوريتها الشاسعة . وأنّها سرعان ما ستستجمعُ قوّتَها وأمرَها وتُلقّنُ هؤلاء الغُزاة المُغترّون درساً قاسياً لن ينسوه ، وتفتحُ لأنصارها بابَ العودة عريضاً . وعلى كلِّ حال فإنّ من شبه المؤكّد أنه لم يكُن يدورُ بخلدهم أن هؤلاء الغُزاة البُداة المُغترّون يُمكن أن يُحدّثوا أنفسَهم بالاستيلاءِ على بقعةٍ عريقة في الحِضارة كـ "الشام" من الدولة الرّوميّة ثم حُكمِها وإدارتِها . ولهذا أو ذاك خرجوا بأسرهم في أعقاب الفلول الروميّة الهاربة . تحثُّ خطاهُم فرقُ المُطاردة التي نظّمها المسلمون لضمان إخراجهم نهائيّاً من أرض"الشام" . لينزلوا مناطقَ من "الأناضول" ، وخصوصاً في "أدرنة" و"سالونيك" ، حيث ما يزالُ أعقابُهم حتى اليوم .

(٢) الانهيار السكاني في السواحل

من المُتوقّع ، وقد خسرتْ المنطقةُ رجالَها وحُماتَها ، أن تتداعى وتنهارَ سُكّانيّاً . مثل بركةٍ انفتقت جدرانُها فانساحَ ماؤها. وفيما يخصُّ سواحلَها الغربيّة ، ومنها طبعاً سواحلُ "لبنان" ، فإن أهلها اليائسين طفقوا يُغادرونَ مُدُنَها بالسُفُن ، مستفيدين من خبرتهم في الإبحار بوصفهم سكانَ سواحل ، وأيضاً من السيطرة الرُّوميّة المُطلَقَةَ على البحر. وهكذا خلَتْ مُدُنُه الرئيسةُ "طرابلس" و"جُبيل" و"بيروت" و"صيدا" و"صور" من أهلِها . في حين أنّ المُدُنَ نفسَها بقيتْ قائمةً سالمةً كما كانت من قبل ، ولكنّها خاليةٌ من السُّكان . لأنّ الرومَ ، وقد عرفنا أنّهم كانوا في ذلك الأوان يبسطون سُلطاناً مُطلقاً على البحر، دأبوا على تنظيم غاراتٍ بحريّةٍ مُفاجئةٍ على سُكّانها القلّةِ الجُدُد. فيقتلون وينهبون ويُحرقون ثم ينجون هاربين بسُفُنهم، في ظلّ عجزِ المسلمين عن منعِهم أو مُطاردتِهم .

(٣) الصورة السكانيّة للجبال اللبنانية

الجبالُ لم تكُن أحسنَ حالاً . جبلُ "لبنان" الشمالي ، الذي يفصلُه عن الجنوبي "طريقُ الشام" المسلوكُ حتى اليوم ، كان خالياً تماماً من السُكّان . بحيث اتخذ منه شعراءُ التصوّف والعرفان رمزاً للتنسُّك والبُعد عن الخلق ، وطلباً لحياةٍ خالصةٍ
لعبادة الله مقطوعةِ العلائقِ بالخلائق.

أمّا القسمُ الجنوبيُّ منه ، المعروف بـ "الشوف" فقد كان أحسنَ حالاً سُكّانيّاً بقليل ، بفضل اتصاله بالطريق الاستراتيجي التاريخي الموصل إلى برّ "الشام" عبرَ "وادي التيم". ولكنّه لم يمتلئ أو يُقارب الامتلاء إلا بأن استقدم الخليفةُ العباسي أبو جعفرالمنصور(ت:١٥٨هـ/٧٧٤م) القبائلَ التنوخيّةَ من "معرّة النعمان" وأسكنها الجبالَ المُشرفة على "بيروت" . وبذلك أنشأ دون أن يقصد عاملاً سُكّانيّاً ما يزالُ حتى اليوم .

وأما القسم الشمالي من "الجليل"، المعروف أكثر حتى اليوم باسم "جبل عامل" ، نسبةً إلى (عاملة) القبيلة ، ورسميّاً باسم (لبنان الجنوبي) ، . فقد كان هو الآخَر شبهَ خالٍ ، باستثناء بعضِ المزارع الفقيرة المُتناثرة ، وثلاثِ قُرى صغيرة هي "قَدَس" و"كفَركيلا" ، "كفَرْكِلا" اليوم ، و"مجدل سِلِم". بعد أن طوّحت الهجرةُ الشّاملةُ بقبيلة عاملة اليمانيّة ذات السّطوة والعديد ، التي منحتهُ اسمَه . ولم يبقَ منها في "الأُردنّ" ، ومنه "جبل عامل" ، إلا ما تتركُه خلفَها حركةٌ سُكّانيّةٌ كبرى من أفراد ، حالَ سببٌ أو غيره دون التحاقهم بقومهم . نعرفهم من حَمْلهم لقب(العاملي) نسبةً إلى القبيلة . مع ضرورة التمييز بينه وبين اللقب نفسه كما شاعَ بعد قرون ، نسبةً إلى الكيان الثقافي الجديد الذي نشأَ في الجبل النّاهض بفضلِ نهضتهِ الكُبرى .

(٤) خلاصة الوضع السكاني في لبنان

صبيحةَ الفتح الإسلامي

هكذا يمكن تلخيص الوضع السُّكاني لـ "لبنان" على النحو التالي :

. السواحلُ شبهُ خاليةٍ ، لا يعمرُها إلا بعضُ المرابطين ، الذين يُجنّدون أنفسهم باختيارهم خُفراءَ لهذا الثغر أو ذاك ، باعتباره عملاً من أعمال الجهاد . وكان من الهموم المُقلقة للدولة علاج هذا الفراغ السُّكاني ، لِما له من آثارٍ سيئةٍ على الأمن العسكري والسياسي . فكانت تنقلُ إلى مُدُنِه الخالية أقواماً من الفُرس وغيرهم ، تأتي بهم من "بعلبك" و "حمص" و "إنطاكية" ، وحتى من "البصرة" و "الكوفة" . لأنها ، فيما يبدو ، لم تكُن تثقُ بالبقايا القليلة من الروم في السواحل . وكان هؤلاء الناقلة والمرابطون يُقيمون في أبراجٍ مُحصّنة ، لحمايتهم من غزوات الروم البحريّة المُفاجئة . وكان بناءُ هذه الأبراج عملاً من أعمال الخير والإحسان، يتبرّعُ به الموسرون الأتقياء . وقد ظلّ الاهتمام بتشييدها وخفارتها مُستمراً حتى أواخرالحكم المملوكي في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي. ولم يفترّ إلا بعد وبسبب ظهورِ المَدافع وتسليحِ السُّفُنِ بها . فباتت الأبراجُ غير ذات كبير جدوى للمُدافعين . وما تزالُ مواقعُ كثيرة على الساحل تحمل حتى اليوم اسم "بُرج" مُضافاً إلى بانيه : بُرج حمّود"، "بُرج البراجنة" ، "برج الشمالي" أو مُضافاً إليه : "ساحة البُرج" ، وأكثرُها في "بيروت" وضواحيها . وبعضها ما يزال

قائماً في الشمال . وهي جميعُها الإماراتُ الباقيةُ من تلك الأبراج ومواقعها .

. أمّا الجبالُ فقد كان منها ماهو غامرٌ خالٍ تماماً تقريباً من السكان . ومثالها القسم الشمالي من جبل "لبنان" و "جبل عامل" ، اللذين بقيا كذلك حتى القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي . ولم يصبحا عامريَن إلا بسبب البعثرة السُّكّانيّة الهائلة التي كان سببُها الغزوات الصليبيّة كما سنعرف . ومنها ما كان عامراً جزئيّاً، ومثالهُ القسمُ الجنوبي من جبل "لبنان"، كما قُلنا قبل قليل .

. السهولُ الداخليّة ، وأكبرُها "سهلُ البقاع" ، لم يكُن فيه من العمران إلا "بعلبك" . التي كانت يوم فتحها المسلمون قريةً صغيرةً تُطيفُ مبانيها الطينيّة بشرق وجنوب قلعتِها التاريخيّة الحصينة . سكّانُها من العرب والروم والفُرس واليهود . وبساتينُها الخصيبة ، المُرتوية من نبع "رأس العين ، " في غربها وشمالها . بالإضافة إلى بعض القرى الصغيرة التي نهضتْ بجوار حصونٍ ، كان الرومان قد شادوها لخفارة الطريق الاستراتيجيّة المؤدّية إلى "دمشق" ، هي "اللبوة" و"قصرنبا" و"الكرك" . وبالإضافة أيضاً إلى بضع قُرى على "طريق الشام" . نعرفُ منها "بوارش" ، المعروفة اليوم بـ "بوارج" ، و "قبر الياس" ، "قبّ الياس" اليوم ، و "برّ الياس" .

(٥) المسيحيون شمالَ جبل لبنان

استتماماً للصورة السُّكّانيّة لـ"لبنان" صبيحةَ الفتح ، لا بُدّ من أن نذكرَ نُزّالَ الأعالي الشماليّة لجبل "لبنان"، بلدة "بشَرّي" وما والاها ، من المسيحيين الذي يُذكرون تحت اسم الجراجمة والمَرَدَة والموارنة ، على اختلافٍ بين المصنفين في هُويّة كلٍّ من هؤلاء ، وخلافٍ أكبر في تاريخ نزولهم تلك البقاع . والذي يُقال إجمالاً أنّ جموعَهم قدمتْ من أقصى شمال"الشام"، حيث تلتقي حدودُه بحدود الدولة الرّوميّة .

وعلى كلّ حال ، فإنهم قبعوا في تلك الأعالي مدّة ثماني قرون عدّاً . إلى أن أصابوا فرصتَهم التاريخيّة بالفراغ السُّكّاني الذي نشأ في "كسروان" و "الفتوح" و"جبيل" و "المتن " بعد إجلاءِ سُكّانِها الشيعة عنها قهراً في أوائل القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي كما سنعرف . فانطلقوا هابطين من معاقلهم المنيعة ، بادئين حركةً سُكّانيّة ، أوصلتهم بعد خمسة قرون إلى حدود "فلسطين" حيث لا يزالون . لكن مُشكلتنا مع هذا العامل السُّكاني البالغ الأهميّة ، ونحن الآنَ نُركّبُ صورةً سُكّانيّة لـ "لبنان" صبيحةَ الفتح الإسلامي ، أننا لا نعرف بالتحديد مَن هم ولا تاريخَ دخولهم في الصورة العتيدة . وإنما نذكرهم لأنهم ، على كلّ حال ، عاملٌ سُكّانيٌّ هامٌ ، بصرف النظر عن هُويّته وتاريخ دخوله في صورة المنطقة .

(٦) دور الهجرات في
التشكيل السكاني للبنان الجديد

هكذا ، فإنّ "لبنان" ، بل و"الشام" عموماً ، في القرن الأول الهجري / السابع الميلادي ، كان يُعاني من فقرٍ شديدٍ جدّاً بالسُّكّان . بحيث أنّه لم يغنَ ويمتلئ أو يُقارب الامتلاء إلا بفضل الهجراتِ النازلةَ فيه كبيرةً وصغيرةً ، قادمةً إليه أكثرَ ما كان وأوّلَ ما كان من "العراق" ، وبعضُها من "اليمن" . وسيكون علينا فيما سيأتي أن نذكرَ ما نعرفُه منها ويتصلُ بخطّة الكتاب . وأن نصِفَ تأثيرَها الاجتماعي والثقافي والسياسي بالقدْر المُتاح . نقولُ هذا مع تحفُّظٍ لا بدّ منه على هجرة المَرَدَة / الجراجمة /الموارنة ، أشرنا إليه قبل قليل، باعتبار أنّها وحدَها قدمتْ من أقاصي شمال"الشام" .

ومن الإمارات الخفيّة على ذلك الفراغ ، التي لا يقرأُها ولا يهتمّ بها ويعملُ على استخرج مغزاها سوى المؤرخ الإنساني ، أنّنا أثناءَ القرنِ ونصفِ القرن التي تلَتْ الفتحَ الإسلامي ، لا نجدُ في الأدبيّات ، خصوصاً في كُتُبِ رجال الحديث ، ذكراً لأحدٍ من الرجال منسوباً إلى بلدٍ من بلدان "لبنان". فقط ابتداءً من النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة / الثامن للميلاد، نبدأُ العثورَ على أنسابٍ من مثل "الطرابلسي" ، "الجُبيلي" ، "الجوني" (نسبةً إلى "جونية" ، بلدٌ على الساحل معروفٌ بالاسم نفسه اليوم) ،

"البيروتي" ، "الصيداوي" ، "الصوري" ، "البعلبكي" . إلى غير ذلك ممّا يعسُرُ استقراؤه وإحصاؤه .

هذه الإمارة تُوازي وتُكمِلُ ما نعرفه من أنّ أولياءَ الأُمور استغنوا بالتاريخ نفسه عن استيراد الرجال إلى المواقع الساحليّة لخفارتها ، كما كانوا من قبلُ يفعلون .

الإمارتان تتقاطعان بدلالتهما عند نقطةٍ واحدةٍ ، هي أنّ تلك البلدان من "لبنان" لم تغْدُ بعد الفتح مأهولةً بالناس . عامرةً بمَن يقومُ بحفظها ، وعامرةً بمن يستحقُّ الذكرَ من نُخبة أهلِها ، إلا بذلك التاريخ . ومن الواضح أنّهما بذلك تصلحان إشارةً ضمنيّةً إلى تاريخٍ تقريبيٍّ لبَدءِ امتلاءِ تلك البلدان بالمهاجرين إليه أي بالتالي بَدءِ تاريخه الإنساني الحيّ المُستمرّ حتى اليوم .

(٧) القاعدة التي يستقرُ عليها
منطلق تاريخ لبنان

هي ذي القاعدة التي استقرّ عليها المُنطلَقُ الحقيقي للتاريخ الإنساني لـ "لبنان" . وعبثاً يُحاولُ المسكونون بتاريخٍ لا وجودَ له إلا في أذهانهم ، مع الزّعم أنّ هذا هو . حصراً . تاريخُنا . إذ يصعدون به إلى الفينيقيين والكنعانيين والروم . من شعوبٍ سادتْ على أرضنا فترةً من الزمان ، ثم بادتْ دون أن تتركَ أثراً يُذكَر، ممّا يتركه الأسلافُ في الأخلاف .

التاريخُ استمرارٌ مثل نهرٍ دافق . عملُ المؤرّخ عليه تركيبُ وسَرْدُ قصّةٍ محبوكةٍ في الزمان وفي المكان . لكنّ هذه الصورة العتيدة قد تستكملُ فصولاً وتنقطع ، مُفسِحَةً ساحتَها لأبطالٍ آخرين جُدُد ركبوا الطريق وصبغوا الحياةَ بصِبغتهم . وبذلك غدا ما سبقه رميما . رميمُ تاريخٍ نقرأهُ كما نقرأ تاريخَ غيرنا ، وليس كنهرٍ نحن استمرارُه ودفقُه الحيّ . ومن الواضح أنّ الفرقُ بين الاثنين كبير .

* * *

سأُنهي هذا الفصل بمثل ما بدأتُ به، إنما بنحوٍ أكثر تحديداً . ها نحن قد خطونا فيه ، على صغره ، خطوةً جيّدةً نحو غايتنا . لقد أصبحنا الآن نعرف من أين نبدأ ، وما هي الإشكاليّات التي علينا أن نُعالجَها . بحيثُ بات بوسعنا أن نقول ، إنّ بُغيتنا هي قراءةُ ذاتنا وهي تنمو في الزمان ومُضطرَبات الأحداث ، ابتداءً من أسلافٍ لنا عمروا هذه الأرض ، فكانوا المُنطَلَقَ الحقيقيَّ لتاريخٍ إنسانيٍّ لـ "لبنان" .

—

الفصل الثاني

—

١ . المهاجرون الأوّلون

(١) كلامٌ على المنهج

يرتبطُ التاريخُ الحيُّ ، الإنسانيُّ حصْراً ، لِما غدا فيما بعد "الجمهوريّة اللبنانية" ، في أساسه ومبدئه ، ارتباطاً وثيقاً بهجرتين رئيستيَن إليه قدمتا من "العراق" ، إحداهما كُبرى ، والثانية أصغرُ منها . الأُولى هي هجرة بني همْدان اليمانيين، والثانية هجرة بني ربيعة المُضريّين . بهما بدأ التغيّرُ السُّكّاني باتجاه الامتلاء .

سيكونُ علينا في أوّل ما سيأتي أن نُعرّفَ بكلتيهما. أن نُعرّفُ بهمدان أولُ بوصف هجرتها أكبرَ الهجرتيَن ، ثم نُعرّف بربيعة بوصفِ هجرتها هجرةً مُوازيةً في الزمان والمكان ولكنّها أقلَّ عديداً . والتعريفُ بهذه وتلك يُبيّنُ ويُسوّغُ نسْقَهما في موضوع الكتاب ، بوصفهما أوّلُ هجرتين كبيرتيَن إليه . كما سيكون علينا أن نُبيّنَ منازلَهما ، وما ترتّبَ على نزولهما من تأثيرٍ سُكّاني ، ثم ما ترتّبَ على هذا بدورهِ من تأثيرٍ معنوي ثقافي ، ممّا تحملُه معها الحركاتُ السُّكّانيّة . ضروةَ أنّ الجماعاتُ الإنسانيّةُ وهي تتحرّكُ في الأماكن ، تحملُ معها مواصفاتِها الثقافيّة ، لتزرعها ولتنبُتَ في مواطنها الجديدة .

(٢) همْدان

أمّا همدانُ فهي قبيلةٌ يمانيّة . ديارُها الأصليّةُ شرقُ "اليمن" أي "حضرموت". وبظهورِ أمرِ الإسلام باينَ شطرٌ كبيرٌ منها مرابعَه ، وتفرّق في الرُّقعة الإسلاميّة الآخذةِ في التوسّع . وكانت "الكوفةُ" مركزَ التجمّع الرئيس لهذه القبيلة خارجَ "اليمن" . بحيث أنّه لدى تمصيرها فازت همدانُ بسُبع المدينة الجديدة .

ومن المعلوم المشهورأنّ صلةً متينةً جداً قامت بين همدان والإمام علي (عليه السلام) . وأنّ هذه الصّلة تعودُ إلى تاريخٍ مُبكّر. حيث النبي (صلوات الله عليه وآله) بعث بابن عمّه إلى "اليمن" يدعوأهلَها إلى الإسلام . فأسلمتْ همدانُ على يده . وأنّه أقام بينهم مدّة سنة تقريباً ، فتفقّهوا في الدين عليه . هذا ، بالإضافة إلى شخصيّة الإمام المؤثّرة ، بنى وشيجةً خاصةً لبني همدان معه . فكانت عمادَ عسكره في "صفين" ، وكان منها قوّاتُ النُّخبة لديه المُسمّاة (شُرطةُ الخميس) .

أصابت همدانُ فترتَها الذهبيّة مع ارتفاع شأن "الكوفة" ، بعد أن اتخذها الإمامُ عاصمةً له . في تلك الفترة الحافلة بالأحداث الجِسام ، صارت همدانُ صاحبةَ الدّور المُنيف ، الذي لا يُدانيه دورُ أي قبيلة أُخرى في معسكر "العراق" . وعندما انفرطَ عقد نظامه إثر داهية التحكيم ، فخرج منها المُحكّمة (الخوارج) ، ومال قسمٌ ضمناً إلى معاوية ، ظلّتْ همدانُ على صلابتِها وإخلاصِها .

في هذه الفترة الفاصلة اكتسبت همدانُ الصورةَ التي دخلت بها التاريخ وأذهان الناس ، بوصفها قبيلةً شيعيّةً خالصة . وذلك ما صنع تاريخَها في الزمن الآتي . وكان لنا في "لبنان" من هذا التاريخ نصيب .

(٣) ربيعة

أمّا ربيعةُ فهي قبيلةٌ من عرب الشمال واسعةُ الانتشار. لكنّ من يتعلّقُ بهم البحثُ هم بطنٌ من بطونها اسمه (عبد القيس . ولفائدة القارئ الطُّلعة نقولُ أنّ النسبةُ إليه "العبدي") . وهم ذوو تاريخٍ أقلُّ وضوحاً في تفصيلاته من تاريخ همدان . نعرفُ أنّ مرابعَهُ الأصليّة في "البحرين" و"عُمان" . وليست "البحرين" هي هذه الجُزُر المعروفةُ اليومَ بهذا الاسم ، بل هي من شرقِ شبه الجزيرة العربيّة ، التي تُعرفُ اليومَ بـ "الأحساء" ، فهي إذن بجوار "عُمان" . ونعرفُ أنّ هذا البطن انساحَ في الإسلام إلى "العراق" ، فنزل "البصرة" وأقلّ "الكوفة". ونعرف أنّ إخلاصَه للمشروع السياسي الذي قاده الإمامُ لم يكُن بأقلّ من إخلاص همدان . ولكنّ دورَه لم يكن يُداني دورَ همدان . وذلك بالنظر إلى أنّ عديدَ هذه أكبر بكثير من عديدِ تلك . وأيضاً بالنظر إلى أن همدان قادمةٌ من مجتمعٍ حضريٍّ مديني ، أقدرُ بحكم خبراتها التاريخيّة على الاستيعاب والاندماج في المضمون الحضاري للمشروع نفسه .

(٤) الأسبابُ التاريخيّة لهجرتهما

كانت كارثةُ "صفين" ، وخصوصاً خدعةُ التحكيم ، بدايةَ النهاية لمشروعِ الإمام . ثم كان اغتيالُ الإمام الحسن (عليه السلام) نقطةَ النهاية ، التي لم يعُدْ من بعدها بارقةُ أمل . ها إنّ "الكوفة" قد فقدتْ زهرةَ رجالها . وها إن إمامَها وقائدَها قد اغتيل ، وها إن خليفتَه مُقيّدٌ ببنود الصلح الذي وقّعه أخوه وإمامُه .

هكذا قبعتِ المدينةُ الجريحةُ المهزومةُ عاجزةً ، تنتظرُ انتقامَ معاوية التي تعرفُ أنّه آتٍ لا محالة . ولقد أتى بالفعل . وليس ممّا يتصلُ بحاجتنا من هذا السّرد أن نقولَ كيف . المهمّ أنّه في نهاية المطاف كان لدى همدان وعبد القيس من الأسباب ما يكفي ليعلموا علمَ اليقين أنّ "الكوفة" لم تعُدْ تتّسعُ لهم . وعلى كلّ حال ، فإنّ جذورَهم لم تكُنْ قد ضربتْ عميقاً في التُربة الكوفيّة ، وهم الذين لم ينزلوها إلا منذ قُرابة عقدين من السنين .

هكذا خرجتْ تلك الجموعُ من "الكوفة" لتنزلَ منازلَ جديدة مُتباعدة . بحيث أنّ بعضَ همدان نزل "مصرَ" و"الأندلس". ولكنّ أكثرَها ، فيما تدلُّ عليه الدلائل ، نزلَ بقاعاً معلومةً من أرض "الشام". ومن هذه ما آلَ أمرُهُ بعد قرونٍ وقرون إلى أن يصبحَ من "لبنان" السياسي . وبذلك غدوا قاعدةً لعاملٍ سُكّانيٍّ . ظلّ يتفاعلُ وينمو باستمرار نُموّاً أُفُقيّاً وعموديّاً . أُفُقيّاً بانتشاره في الأمكنة ،

وعموديّاً بحضوره الثقافي والسياسي . كما هو حالُ غيره من أطياف .

ولرُبّ قارئٍ يتسائلُ الآن ، كما تساءلتُ : ولكن كيف أن هؤلاء الذين خرجوا ناجين بأنفسهم من بطش معاوية ، لجأوا إلى أحضانه ؟ ومن المعلوم أن بلاد "الشام" كانت إذ ذاك تخضعُ لسُلطانه المُطلَق .

هذا التساؤلُ لا ينظرُ إلى أصلِ الواقعة ، لأنّها ثابتةٌ بما لا يقبلُ الّريب . ولكنّه يطلبُ تفسيراً لسلوكٍ جمْعيٍّ يبدو غير مُنسجمٍ مع طبيعة الأُمور . وهذا من حق القارئ .

والذي أراه بعد طول تأمّل ، أنّنا يجبُ أن ننظرَ إلى الأمر بعقلِ وعيني معاوية . ذلك الداهية الذي لا يُحسن شيئاً بقدْر ما يُحسنُ أن يضعَ خصومَه بين خياريَن، أحلاهُما طعماً في فمه ، أقلُّهما مرارةً في أفواههم .

من الواضح أنّ استبقاءَ معاوية أشدَّ أخصامه عليه في البيئة الحاضنة لهم ، أي "الكوفة" ، لم يكُن إلا بمثابة تأجيل للمعركة أو المعارك التالية حتماً . ستبقى حاجاتُ النفوسِ كما هي، بل ربما تزيدُها آلامُ الهزيمةِ حرارةً . أفضلُ حلٍّ سياسي للمعضلة أن يطويهم ثم يُعيدُ نشْرَهم من جديد ، حيث سيكونون مكثورين عديداً، مغلوبين سياسيّاً وثقافيّاً . أشبهُ باللاجئين الذين لا يطمعون بأكثر من مكانٍ آمنٍ يستقرّون فيه ، مقطوعين فيه عن كل تاريخهم

ومرابعه. إذ ذاك سيكونون في موقع المُستضعَف بكل المقاييس ، مُستضعفون بالمقياس العددي ، ومُستضعفون بالمقياس السياسي ، ومُستضعفون بالمقياس الثقافي . خصوصاً إذا هم نُشروا في جماعاتٍ صغيرةٍ . حيث سيذوبون مثل قطعة زبدٍ تحت حرّ شمسٍ حامية . هكذا فرضَ معاويةُ أو ، على الأقلّ ، رضيَ بأن يراهم يتبعثرون في البلدان من "الشام" إلى "مصر" إلى "الأندلس" وربما في غيرِها من البلدان . حيث ضاع أكثرُهم . ولم يبقَ منهم إلا أسماءٌ منسوبةٌ إلى أحد الفريقين : (الهمْداني) ، (العبدي) ، حفظتها لنا كُتُبُ الأدب والسيرة ورجال الحديث .

بهذا التدبير الماكر أسّسَ معاويةُ ، طبعاً دون أن يقصد ، أساسَ الصورة السُكّانيّة لـ "الشام" ، خلافاً لكلّ التوقّعات والتهيُّئات . وفي هذا درسٌ من دروس التاريخ ، نقرأُ فيه أن الطُغاةَ قد يفرضون البداياتِ الآنيّة بما لديهم من سُلطانٍ طاغٍ . ولكنهم أعجزُ بكثير من أن يُسيطروا على النهايات . ذلك أنّ البدايات فعلُ مَن إذا أرادَ فعل من ذوي السُلطان . أمّا النهايات فهي فعلُ قوانين التاريخ ، أو إرادةُ ربّ التاريخ . ولكنّ أكثرَ الطُّغاةِ لا يعلمون .

(٥) متى وأين بدأت الهجرات

في وقتٍ ما من العقد السادس من القرن الأول الهجري / العقد التاسع من القرن السابع الميلادي هبطَ أولئك المهاجرون من

همدان وعبد القيس ، القادمون من "الكوفة" ، أو بعضُهُم أرضَ "لبنان" . قسمٌ منهم نزلَ أطرافَ "بعلبك" ، والثاني الهضاب المُشرفة والمجاورة لمدينة "طرابلس" . وما ندري يقيناً لماذا انشطروا إلى شطريَن مُتباعديَن. ولعلّ ذلك كان من ضمن سياسة معاوية . ولقد قُلنا قبل قليل أنّ من مصلحته ، وربما من خطّته ، كانت في أن ينشرَهم في جماعاتٍ صغيرة العدد ، حيث تسهُلُ السيطرةُ عليهم .

نُلاحظُ أيضاً أنّهم نزلوا الجبالَ والمنطقةَ الداخليّة ، على شُحِّ مواردها وبردِها القارس، واجتنبوا البلدانَ الساحليّةَ الدافئةَ والأغنى بمواردِها . وهم القادمون من "العراق" ، وقبلُ من شبه الجزيرة ، وكلّها ذاتُ مناخٍ دافئٍ نسبياً شتاءً وحارٍّ صيفاً . وهذا أمرٌ يجبُ أن يكونَ سببُهُ مفهوماً لدى القارئ الحصيف ، الذي وعى قلبُه ما قلناه قبل قليل على وضع البلدان السّاحليّة الأمني الضعيف ، المُهدّد في ذلك الأوان بالغارات البحريّة الروميّة المُفاجئة عليها .

المُهمُّ أنّ كلا الشطريَن بدأ من منزله الجديد تاريخاً جديداً تماماً. جديداً بالنسبة إليهم، وجديداً بالنسبة للأرض التي نزلوها . أمّا بالنسبة إلينا ، نحن الباحثين عن الأسرار المكتومة لتاريخ بلدنا ، فإنّه يمنحُنا عاملاً وقاعدةً سُكّانيّةً متينةً وواضحة ، يمكنُ أن نبدأَ منها تاريخاً إنسانيّاً ، نعملُ عليه بأن نتتبّعَهُ في مختلف تحوّلاته وتجلّياته .

(٦) تاريخُ هبوط المهاجرين

أرضَ لبنان

يبقى سؤالٌ أو تساؤلٌ لا بُدّ من الوقوفِ عنده :

هل يُمكن أن نضعَ تاريخاً أكثر دقةً لهبوط أولئك المهاجرين وكيف ؟

وفي الجواب نقول :

نحن لا نطمعُ بأن نجِدَ في كُتُبِ التاريخ الرّسمي ذكراً مُباشراً لحدّثٍ كهذا . لأنّ هذا النمط من التاريخ لا يولي اهتمامَه إلا للسُلطةِ ورجالِها وأخبارِهم. ويستنكفُ عن ذكر ماسوى ذلك من شؤون العباد.إلا حيث يحدثُ أن يتقاطعَ خبرٌ من أخبارالسُلطة مع شأنٍ من شؤون الناس .

ومع ذلك فإنّنا لن نُعدمَ وسيلةً لاختراق الحجاب الذي يُسدلهُ التاريخُ الرسميُّ على التاريخ الإنساني . واعتقد أنّ القارئَ الحصيفَ قد بات يعرفُ أن كلَّ كتابنا هو من هذا القبيل .

من الثابت أنّ همدانَ و عبدَ القيس كانتا من المكوّنات الأساسيّة والفاعلة في فريق الإمام في السياسة وفي القتال . ثم أنّها شاركتْ بقوّةٍ في مجرى الأحداث في الفترة التي كافحَ فيها الإمامُ الحسن (عليه السلام) لإنقاذ ما يُمكن إنقاذُه . ثم انطفأوا فجأةً من التاريخ بعد اغتياله سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠ م .

لم نرَهُم في يوم "كربلا" سنة ٦١ هـ / ٦٨٠ م ، وما سبقهُ من نشاطٍ سياسيٍّ عامٍ ، بما فيه من اجتماعاتٍ حاشدةٍ ومُراسلاتٍ كثيرة

. ولم نرَهُم في حركة التوّابين ، التي جعلتْ من "الكوفة" مركزاً لحِراكٍ سياسيٍّ علنيٍّ مُعادٍ للأُمويين . وجرى الإعدادُ لها علناً أيضاً على مدى خمس سنوات . ولم نرَهُم في حركة المختار، التي ثنّتْ على حركة التوّابين . ورفعت شعارَ الاقتصاصِ ممّن باشر قتل الإمام الحسين (عليه السلام) وأهلَ بيته وأنصاره . والشواهدُ غيرُ هذه كثيرة .

بالنظر إلى تلك الأحداثِ وتواريخِها ، فإنّنا نُرجّحُ بقوّة أن هبوطَ أولئك المهاجرين أرضَ "لبنان" قد حصلَ بُعيد السنة ٥٠ هـ بقليل ، أي على أثر اغتيال الإمام الحسن(عليه السلام). ومن المعلوم أن تلك اللحظة كانت قاسيةً جدّاً على الشيعة في "الكوفة"، الذين عانوا صنوفَ النكباتِ من قبل . ثم جاء اغتيالُ إمامهم وقائدِهم ليقضي على البقيّةِ الباقيةِ من الأمل لديهم .

على أنّ هذه النتيجة لا تعني بالضرورة أنّ تلك الهجرة الكبرى قد حصلتْ دفعةً واحدةً . وعليه يبقى الاحتمالُ قائماً أنّها قد حدثتْ بدفعاتٍ صغيرةٍ نسبيّاً . بل هو الأرجح . وفي هذا ، ربما ، سببٌ آخَر لعدم الالتفات إليها فيما تركته الأخبارُ والتسجيلات من ذلك الأوان .

* * *

نختمُ هذا الفصلَ بالقول ، إنّ ماسردناه على الهجرتين لا يعني أنّه لم يكُن هناك هجراتٌ صغيرةٌ غيرها . قوامُها جماعاتٌ

تحوّلت بُغيةَ الاستقرار . فالفتحُ ألغى الحدودَ التي كانت قائمةً بين "الشام" من جهة وبين "العراق" و"شبه الجزيرة" من جهةٍ أُخرى . وعلى كل حال ، فإنّ من المعلوم أنّ "الشام" كان دائماً مصبّاً لهجراتٍ قادمةٍ إليه من تلك الأنحاء . وكلّ ما فعله الفتحُ أنه ألغى الحدودَ السياسيّةَ ، ففتحَ بابَ الهجرةِ على مصراعيه . والذي يسبرُ كُتُبَ الفتوح يقعُ على ذكرٍ لوجوه الحركة السُّكّانيّة الكُبرى التي كان لها الفضلُ في امتلاء "الشام" . ونحن إنّما لم ننظُمها في بحثنا فلأنها تفتقرُ إلى شرطٍ من شروطه ، هو معرفةُ الهُويّةِ الثقافيّةِ للمهاجرين . مثلما نعرفُهُ لدى همدانَ وربيعة .

—

الفصل الثالث

–

بعلبك والبقاع البعلبكي

(١) الهمدانيّون في "أطراف" بعلبك

نذكرُ مدينةَ "بعلبك" ، في سياقِ كلامنا على المهاجرين الأوّلين ومنازِلهم ، ليس لأنها بنفسها كانت من منازلهم . بل الثابتُ عندنا ، استناداً إلى نصٍّ نادرٍ من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، أنّ منازلَهم كانت في "أطرافِ بعلبك" . وسنقفُ الوقفةَ المناسبةَ على المعنى الفعلي لهذه العبارة المُلتبسة .

وإنّنا لنظنُّ ظنّاً قويّاً ، دونَما دليلٍ مُباشرٍ، أنّ نزولَهم هذه المدينة ، لم يكنْ أمراً ممّا يمكنُ أن يقبلَهُ معاوية . لقد كان الرجلُ أذكى وأكثرَ دهاءً من أن يسمحَ لهؤلاء الذين لا يأمنُ جانبَهم ، بل هم أعداؤه التاريخيّون ، بأن يبسطوا سيطرتَهم العدديّة على مدينةٍ بمثلِ المكانةِ الاستراتيجيّةِ البالغةِ الأهميّةِ لـ "بعلبك" . بل يُمكنُ القولُ أيضاً ، أنّ المهاجرين أنفسهم كان لديهم من الأسباب ما يدعوهم إلى النأي بانفسهم عن مركزِ مدينيٍّ ، حيث تكونُ سطوةُ الدولة وأجهزتِها أقوى ما يكون .

أمّا "البقاعُ البعلبكي" فنريدُ به القسمَ الشرقيَّ من "سهل البقاع" ، المُمتدُّ شمالاً حتى "وادي العاصي". يفصلهُ عن بقيّة السّهل من

الغرب ، ويُسمّى تمييزاً له بـ "البقاع العزيزي" ، "طريقُ الشام" ، المرسومُ اليومَ حيث كان من قديم الزمان .

(٢) سرّ تاريخي ومفتاحُه

إن باعثنا إلى البحث عن السرّ التاريخيّ للصورةِ السُكانيّة لـ "البقاع البعلبكي" ، هو في أنّنا لم نعرفه في الإسلام إلا معموراً بالشيعة ، كما لا يزالُ . ممّا يطرحُ على المتأمّل سؤالاً كبيراً، هو: من أين أتوا ؟ ومفتاحنا الوحيد إلى وُلوج سرّهُ يكمنُ في تلك العبارة التي أشرنا إليها ووصفناها قبل قليل بـ "المُلتبسة" القائلة : " وفي أطرافِها [يعني بعلبك] قومٌ من اليمن" .

ومن الواضح أنّ قيمةَ هذه العبارةِ لبحثنا ، على غموضِها ، هي في أنّها تُشيرُ إلى أساسِ ومبدإِ وُجود الشيعة في المنطقة ، خلافاً لكلّ تهيّؤاتها الذّاتيّة . ومن المُفيد أن نُذكّرَ القارئ بما كان عليه السهلُ إجمالاً من وضعٍ سُكّانيّ بائسٍ . الأمرُ الذي يفرُضُ علينا أن نبحث عن سرّ وُجود هؤلاء اليمانيين حصراً في وافدٍ على المنطقة ، أي أطراف "بعلبك"، من خارجِها . وهذا واضح .

والعبارةُ هي لابن واضح اليعقوبي (ح:٢٩٢هـ / ٩٠٥م) في كتابه الثمين (البُلدان) . واليعقوبي بُلدانيٌّ ثَبْتٌ ، المعروفُ بين أهل البحث أنّه من كبار العارفين في زمانه بأقطارِ"الشام" وبلدانِه وعُمّارِها ، وأنه لا يصدرُ فيما يقولُهُ إلا عن معرفةٍ مُباشِرة . ونحن

نأخذُ من نصّه النادرِ إجمالاً أنه في أواسط القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي كان سُكّانُ أطراف "بعلبك" من أهل "اليمن" . ولكن ثقتنا بصحّة صدور هذا النصّ عنه ، ثم ثقتنا بصدق قائله ، لا تكفي لِما ينفعُ بحثنا الآن . مادام النصُّ على هذا النحو من الغموض والابهام .

فما معنى "**أطراف بعلبك**" ؟

ومن هم أولئك الـ "**قوم من اليمن**" ؟

ومتى نزلوا منازلِهَم تلك ؟

تلك هي الأسئلةُ التي يتوقّفُ على الجواب عنها مدى استفادةِ بحثِنا من النّصّ . وعليه فإنّنا سنبدأُ بتحليل مفرداتِه الأساسيّة ، مع تدعيم دلالتها وإيضاحه بما تحت يدنا من معلومات ، نستقيها ممّا تركه أهلُها من معالمَ مادّيّةٍ ومَرويّات . وهي من المصادر الأكثر أهميّةً للمؤرّخ الإنساني .

(٣) معنى "أطراف بعلبك"

والطرفُ من الشئ أو الجسم ما يكون مُتصلاً به دون أن يكونَ منه . أي أنّ "أطراف بعلبك" ما ليس من جسم المدينة ، ولكنه من ضواحيها أو جوارها . وهذا تنصيصٌ ضمنيٌّ واضحٌ على أنهم لم ينزلوا المدينة .

و"قومٌ من اليمن" نصٌّ واضحٌ أيضاً ، ولكنّه عامٌّ غيرُ مُحدّدٍ للمعنيّ به . لِما نعرفُهُ من أنّ هذا القطر القصيُّ ، أي "اليمن" ، ظلّ يقذفُ بأبنائه نحو "الشام" قروناً ، من قبلِ الإسلام ومن بعدِه . وعليه فما الذي يدلُّ على أنّ هؤلاء اليمانيين هم أسلافُ الشيعة الذي عمروا وما يزالون "البقاعَ البعلبكي" ؟ أليس من الممكن أن يكونوا ممّن هاجر إليه قبل الفتح ؟

ونقول : إن هذه الفرَضيّة تتنافى مع قاعدة الاستمرار في التاريخ . إنّ تفكيرَنا يدورُ على مُعضلةٍ تطلبُ تفسيراً لأمرٍ ثابتٍ مؤكّدٍ ، هو أنّنا لا نعرف "البقاعَ البعلبكيَّ" في الإسلام إلا شيعيّاً . وبين أيدينا ثابتٌ آخَر هو هذا النصُّ . ومُقتضى قاعدة الاستمرارأن نصِلَ ذهنيّاً بين الثابتيَن . إلا أن يثبتَ العكس .

(٤) باب همدان في بعلبك ودلالتُه

ثم أنّ هاهنا نُجدةٌ غير مُتوقّعة ، تمنحُنا إيّاها الطوبوغرافيا حيث يضنُّ التاريخ ، تؤكّدُ صحّةَ ذلك الوَصْل الذهني ، وضمناً صحّةَ قاعدة الاستمرار . هذه النجدة تفتحُ لنا كُوّةً صغيرة ، يتسلّلُ منها بصيصُ ضوءٍ ضئيلٍ . ولكنه كافٍ لإنارة سبيلنا باتجاه حلّ المُعضلة. هي أنّ أحد أبواب مدينة "بعلبك" كان يحملُ اسمَ "باب همْدان" . يرِدُ ذكرُه كثيراً في مختلف المصادر. هذا الباب كان بالتحديد جنوبَ المدينة ، حيث اليومَ وكان دائماً مُتنزّه "رأس العين"

المعروف ، الذي يُسمّى في بعض المصادر "الميدان الأخضر" . "في الميدان الأخضر، خارجَ باب همْدان ببعلبك" .

ومن المعلوم أنّ أبوابَ المدينة الإسلاميّة كانت تُسمّى بالنظر إلى ما تُفضي إليه خارجَها . أي بالنظر إلى المكان أو البلد الذي يقصدُهُ الناسُ عادةً وهم ينطلقون منها خارجين . ذلك لأنه بالنظرِ للداخلِ إلى المدينةِ فإنّ كلّ الأبواب تُفضي إليها ، فلا تمتازُ بذلك باباً عن باب . والغايةُ من التسمية والأسماء في هذا وفي غيره إنما هو التمييز . إذن ، ففي اسمِ هذا الباب دليلٌ لا مِراءَ فيه على أنّه كان يُفضي إلى حيث يُقيمُ تجمُّعٌ سُكّانيٌّ من بني همْدان . وأنّ هذا التجمّع كان من كثرة العدد بحيث كان الأبرزَ في المكان الذي يُسامتُ ذلك الباب ، بحيثُ أطلقَ عليه الناسُ اسمَه المنسوب إلى همْدان .

ونحن نفهمُ من النصّ أنّ "باب همْدان" كان يفتحُ على "الميدان الأخضر" ، أي على مرج المدينة ، الكائنِ تحت نبع رأس العين . وهو من معالم المدينة المعروفة حتى اليوم . ولكن ليس بعد المرجِ فالنبعِ إلا الهضابُ ومن بعدِها الجبال . فالسائرُ من جوارالنبع باتجاه الجنوب الشرقي سيصِلُ بعد بضع خطوات إلى بَدءِ الطريق الصاعد إلى الهضاب والسفوح ، لترقى به مسافةَ أميال إلى سلسلة جبال "لبنان" الشرقيّة ، حيث تنعطفُ باتجاه مدينة "حمص" في وسط "سوريّة" .

إذن ، هناك كانت منازلُ همْدان في"أطراف بعلبك"، التي استدعَتْ تسميةَ باب المدينة المُؤدّي إليها"باب همْدان". واحتفظَ البابُ باسمه هذا حتى أوائل القرن الثاني عشرللهجرة/الثامن عشر للميلاد على الأقلّ. ثم ضاعَ ونُسيَ مع كرّ الأيام .

من هناك هبط السُّكانُ الشيعةُ الذين سيعمرون السفوحَ الجنوبيّةَ الغربيّةَ المُطلّةُ على "سهل البقاع" . ومنها أيضاً سُكانُ قريتي "الجُبّة" و "عسال الورد" التي سيهبط منها آل الحرفوش إلى "سرعين" . ثم ليُتابعوا من هذه هبوطَهم ضمن حركةٍ سُكّانيّةٍ كبيرةٍ تتحرّك ببطءٍ باتجاه السهل . ثم ليُصبحوا أُمراءَ المنطقة لعدّة قرون . وليتخذوا من "بعلبك" قاعدةً لحُكمهم ، في سياقٍ تاريخيٍّ سنقفُ عليه فيما يأتي من هذا السّرد .

(٥)آثار أسلافنا في جُرد بعلبك الشرقي

وممّا يجدُرُ بنا ذكرُهُ هنا ، أنّ الأوديةَ الكثيرةَ التي يُصادفُها المُتسكّعُ في "جُرْدِ بعلبك" الشرقي مملوّةٌ حتى اليوم بآثار قُرىً كثيرةٍ خَرِبَةٍ . مبنيّةٍ بناءً متيناً بالأحجار المُنتزَعَة من الطبيعة المحلّيّة . كما ترى فيها أينما توجّهتَ آثارَ استصلاح الأراضي وتحضيرَها للزراعة ، بشكل سلاسلَ وجُلول لا حدّ لتعدادِها . مبنيّةِ هي الأُخرى

بالأحجار، ابتغاءَ تكوينِ عُمقٍ ترابيٍّ على شيءٍ من الخصوبة ، ومنعِه من الانجراف مع المياه الهابطة .

هذه ، من "باب همّدان" إلى آثار المساكن والأراضي المُستصلّحّة ، هي الشاهدُ المادّيُّ الحيُّ على قصّة الشعب الذي نزل تلك الهضاب . بعد أن وصلَ إليها قادماً من "الكوفة" ، نُزولَ طائرٍ مُهاجرٍ قد أضناهُ طولُ المَسير. في وضعٍ أشبهُ بالهائم على وجهه . بعد أن قطعَ مئاتِ الأميال ، في ظروفٍ إنسانيّةٍ لا نعرف منها شيئاً. ثم كان عليه أن يُكافحَ لمُدّة قرون ليستمرّ ويبقى حيّاً . مُنتزِعاً ما يتبلّغُ به من قلبِ الأرضِ الجبليّةِ الشّحيحة . ولكم تُخفي هذه القصّةُ في عمومِها من آلافِ القصص الصغيرة ، عن المُعاناةِ الهائلةِ التي لقيها أُولئك الناسُ القادمون من "العراق" الدافئ الخصيب ، ليستقرّوا في تلك الهضاب الجرداء القاسية المناخ . وكم خسروا من الضحايا قبل أن ينجحوا في التكيُّف مع الطبيعة القاسية لوطنهم الجديد . ولكنّهم ما أن سقطَ الحاجزُ النفسيُّ الذي حملوهُ معهم من تجربتهم المُرّة في "العراق"، وايضاً مع التبدّلات السياسيّة الجذريّة التي حصلتْ غيرَ بعيد ، بالإضافة إلى عجز موارد الأرض عن مُجاراة الزيادة السُكّانيّة الطبيعيّة ، . حتى بدأوا يهبطُون من معاقلهم ، مُتجهين أولاً إلى السفوح الأكثر خصباً ودفـءً ، ثم إلى مدينةِ "بعلبك" .

(6) متى نزل أسلافُنا الهمدانيّون شرق بعلبك ؟

ذلك السّردُ يُجيبُ عن سؤاليّن من الثلاثة . يبقى الجوابُ عن الثالث .

متى نزلَ أولئك الهمْدانيّون منازلَهم تلك ؟

ولقد عالجنا مثلَ هذا السؤال من قبل وأجبنا عنه أعلاه بالنسبة لهجرة الهمْدانيّين وبني ربيعة عموماً . امّا هذا فإنّه يطلبُ جواباً عن هجرتهم إلى "بعلبك" ونطاقِها خصوصاً . مُراعاةً لاحتمالٍ لا يُمكنُ إغفالُه ، هو أن تكونَ تلك الهجراتُ قد حصلتْ على نحوٍ مُتفرّقٍ وفي تواريخ مُتفاوتة . ثم هاهنا فائدةٌ أُخرى من طرح السؤال هو الاستفادة من كلِّ ما نقعُ عليه من أدلّة على هذا التساؤل أو ذاك .

هنا أيضاً يُنجدُنا معلمٌ من معالم مدينة "بعلبك" . يمكنُ أن يُساعدَنا على الجواب عن هذا السؤال . هو الخرائبُ المُهيبةُ القائمةُ غيرَ بعيدٍ عن المكان الذي كان يقومُ فيه "بابُ همّدان" . ولكنّ البابَ تهدّم وضاعت آثارُه ، مثلما تهدّمَت وضاعت آثارُ الأبوابِ الأربعةِ الباقيةِ للمدينة : "باب سطحا" ، "باب نحلة" ، "باب حمص" ، "باب الشام" . أمّا خرائبُ المَعْلَم المُشار إليه فإنّها ما تزالُ قائمةً ، تشهدُ على ما كان عليه من عظمةٍ وجمال .

نقصدُ بذلك الخرائبَ المُهيبةَ القائمةَ حتى اليوم على جَنْب نبع "رأس العين" من غربيّه . التي يُسمّيها أهلُ المدينة "مسجد رأس الحسين" ، وتُسمّيها بعضُ المصادر التاريخيّة المتأخّرة نسبيّاً والقيودُ الرّسميّةُ لمديريّةِ الآثارِ اللبنانيّة "مسجدَ الظاهر بيبرس". والحقيقةُ أنّه ليس مسجداً ، ولا شأنَ لهذا السلطان المملوكي به ، سوى أنّه هو الذي رمّمه قبل زُهاء ثمانية قرون ، كما يشهدُ رقيمٌ منقوشٌ على الحجر ما يزالُ ثابتاً على أحد جدرانه الخارجيّة . في حين تُسمّيه مرويّاتٌ شفويّة مُتداوَلَةٌ حتى اليوم "مشهدَ رأس الحسين". يؤيّدُ هذه المرويّات خلوُّ الخرائب من أثرِ مأذنة. وما من مسجدٍ دون مأذنة من قبل هذا ومن بعده .

لذلك فإنّنا نذهبُ إلى أنّ أصلَهُ أحدُ المشاهدِ الكثيرة التي بدأ بناءَها الناسُ في مواضع كثيرة ، تمتدُ من "الموصل" ، وُصولاً إلى "دمشق" ، حيثما حلّ الموكبُ الحزين الذي سارَ من "الكوفة" برؤوس شهداء يوم "كربلا" ونسائِهم وأطفالِهم ، إلى أن وصلَ بهم إلى "دمشق" . وكانت "بعلبك" بالتأكيد من المحطّات التي نزلَها . كما نعرفُ أنّ الظاهرَ بيبرس لم يهتمّ بترميمه إلا للتغطية على صفته المشهديّة هذه ، مثلما فعلَ بغيره من المشاهد .

وعلى كلّ حال ، فإنّ بناءَ مسجدٍ في ذلك المكان ، الذي كان بتاريخ ترميمه بعيداً مسافةً غير قصيرة عن سور المدينة ، لهو أمرٌ مُستبعَدٌ جداً . في حين أنّ نزولَ ذلك الموكب بجانب النبع

البعيد عن المدينة ، يُناسبُ حالَهم ومقاصدَهم . لأنّه يُوفّرُ لهم الظّلالَ والماءَ البارد السلسبيل الذين كانوا بأمَسِّ الحاجة إليهما بعد طول السّفر. كما أنّ بُعدّه عن المدينة يحولُ دون اختلاط الناس بالنساء ومعرفة مَن هم في الحقيقة . الأمرُ الذي كان أولياءُ الموكب يحذرونه أشدَّ الحذر . وهم الذين كانوا يُخادعون الناس بالقول : "**هؤلاء خارجون على أمير المؤمنين**" .

(٧) العلاقة بين المشهد وتاريخ نزول الهمدانيين أطراف بعلبك

والآن ، ما هي علاقةُ هذه الفذلكة التاريخيّة بالسؤال الثالث الذي بدأناها به ؟

ونقولُ في الجواب :

العلاقةُ في أنّها تُبدلُ السؤالَ من: متى نزل أسلافُنا الهمدانيّون منازلَهم تلك ؟ إلى : مَن كان أولئك الذين بدأوا بناءَ ذلك المشهد قبل ترميم الظاهر بيبرس له ؟

الجوابُ الوحيدُ المقبولُ عنه ، هو أنّهم لم يكونوا إلا أولئك الهمْدانيّون ، الذين كان الموقعُ في طريقهم ، وهم يغدون ويروحون من "بعلبك" وإليها . من "باب همْدان" إلى مساكنهم في الأعالي وبالعكس . وهم الذين كانوا يرون الموكبَ ومَن فيه في غدوّهم ورواحِهم . فلما انكشفت لهم الخديعة ، كما انكشفتْ لدى غيرهم

على طولِ طريقِ الموكبِ الحزين، وعرفوا أنّ هؤلاء لم يكونوا إلا رؤوسَ الإمام الحسين(عليه السلام) وأهلِ بيته وأصحابه من الشهداء، وأنّ النسوةَ لم يكنّ إلا نساءَهم ، حتى خلّدوا المنزلَ بإقامةِ بدايةِ مشهدٍ فيه ، كما فعل غيرهم أيضاً على طول الطريق الطويل المُمتدّ من "الموصل" إلى "دمشق" . وهم الذين كانوا يعرفون حقّ المعرفة مَن هو صاحبُ الرأس ، وعرفوا من قبلِهِ أباه وناصروه وقاتلوا معه . ومن المُحالِ أن يكونَ مَن بادرَ إلى ذلك من غيرهم ، لأن هذا الغير لم يكُن في "بعلبك" يوم ذاك إلا إمّا من اليهود وإمّا من الفُرس ، وربما كان معهم مُستأمنةٌ من الروم ومن العرب المُتنصّرين . وأنّى لهؤلاء أو بعضهم أن يهتمّوا بوضع أصل ذلك المشهد !

النتيجةُ أنّه بالنظر إلى أنّ يوم "كربلا" ثم موكبُ الأحزان قد حصلَ في السنة ٦١ هـ / ٦٨٠ م . ثم بالنظر إلى أنّ الهمْدانيين كانوا بذلك التاريخ في "بعلبك" كما أثبتنا . فإنّنا نقطعُ بأن هجرتَهم إلى أطرافها قد حصلت قُبيلَ تلك السنة ، أي بُعيدَ اغتيال الإمام الحسن (عليه السلام) سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠ م . ونُذكّر القارئ بأنّنا افتقدناهم من قبلُ في سلسلة الأحداث الكبرى التي بدأت بيوم "كربلا" وما تلاه . ونقول ، إن هذا التقاطُع من أقوى الأدلّةِ التاريخيّة . بل هو الامتحان الأكثرُ عُسراً لنتائج البحث التاريخي وتركيبِ مُفرداتِه .

(٨) الأطراف الأُخرى لبعلبك

يبقى تساؤلٌ أخير :

إنّ اليعقوبي تحدّث عن "**أطراف** بعلبك"، بوصفها منازلَ لمَن صحّ لدينا أنّهم المهاجرون الأوّلون من الهمدانيين. ولكنّ ما وقفنا عليه حتى الآن هو طرفٌ واحدٌ فقط ، هم نُزّال الهضاب العالية شرقَ "بعلبك" . وبناءً على قاعدة أصالة صحّة النص ما لم يثبتْ العكس ، خصوصاً وأنّه وصلنا عن عارفٍ موثوق ، فإنّ علينا أن نُتابعَ البحثَ عن مضمونٍ إضافيّ في النصّ ما يزالُ خفيّاً علينا .

فهل ثمّةَ من طرفٍ أو أطرافٍ أُخرى لـ "بعلبك" نزلها مهاجرون من همْدان أو من غيرِها من اليمانيين ؟

هنا أيضاً تُنجدُنا الذّاكرةُ الشعبيّةُ المحلّيّةُ ومَرويّاتُها بما يَشفي ويُجدي . ذلك أنّ في نطاق "بعلبك" قريتان عريقتان ، تقطنُ كلاً منهما أُسرةٌ كبيرة ، ما يزال أبناؤهما يفخرون بنسبهم إلى همْدان . هما "إيعات" إلى الشمال من المدينة ، و "تمنين" إلى الغرب منها .

البلدتان تحملان اسماً آراميّاً ، ممّا يدلُّ بما لا يقبلُ الرّيبَ على أنّهما كانتا قائمتيَن عندما حصلَ الفتح الإسلامي ، وليستْا ممّا جدّ تمصيرُه بعدَه . إذن ، فنزولُ المهاجرين الهمدانيين فيهما أمرٌ

مقبولٌ أو مُمكنٌ مبدئيّاً من جهة تاريخهما ، أو على الأقلّ لا مانع منه . وربما كان أهلوهما الأصليون ممّن نزحوا مع النازحين في أعقاب الروم باتجاه "الأناضول" ، شأنَ أكثرِ أهل مختلف بلدان "الشام" . فجاء المهاجرون الهمْدانيّون ووجدوا البلدتيَن خاليتيَن أو شبه خاليتيَن فقطنوهما . وهذا ومثلُه حصل كثيراً في أقطار"الشام" بعد الفتح كما عرفنا.

أعرقُ ساكني "إيعات" وأكثرهم عديداً هم أُسرةٌ تُعرف بآل (عبد الساتر) ، ومثلُهم في "تمنين" التحتا آل (ياسين) . وكلتا الأُسرتيَن كما ألمحنا تقولان ويذكرُ الناسُ لهما أنّهم همدانيّوا الأصل .

والعارفُ بالتركيبة السُّكّانيّة للمنطقة ، يعرفُ أنّ الشيعةَ من عُمّار القرى والبلدان المُنتشرة على السفوح الشرقيّة والجنوبيّة لـ "جبل لبنان" المُشرفة على "سهل البقاع" وما والاها من السهل، ينتمون قاطبةً بأُصولهم إلى الجبل ، وأكثرهُم إلى "كسروان" و "جبيل" . لا استثناءَ من ذلك إلا هاتيَن الأُسرتيَن . ممّا يدلُّ دلالةً قويّةً جداً على صحّة ما تقولان .

نخلصُ من ذلك إلى أنّ هاتين القريتين هما ما أو ممّا قال فيه المؤرّخ اليعقوبي "أطراف بعلبك" .

* * *

هذا التدقيق يقودُنا إلى أنّ الأصولَ الأُولى للسُكّان في منطقة "بعلبك" ، التي كانت شبه الخالية بعد الفتح الإسلامي ، هي من المهاجرين الهمْدانيين . نزلوها بُعيد السنة ٥٠ للهجرة/٦٧٠ للميلاد في بلدتيَن من بلدان"سهل البقاع" . بالإضافة إلى عددٍ غير معروفٍ من القرى والمزارع الصغيرة في هضاب وجُرْد "بعلبك" الشرقي ، نعرفُ منها قريتي "الجُبّة" و "عسال الورد" وربما أيضاً قرية "عمِشكي" القريبة من "بعلبك" . أمّا البقيّة فقد ضاعتْ أسماؤها بعد أن اندثرت ، ولم يبقَ منها إلا أثارُها المُتناثرة في الجبال شرق المدينة .

—

الفصل الرابع

–

طرابلس وشمال جبل لبنان

(١) ملاحظاتٌ أوّليّةٌ على إشكاليّات البحث

مثلما بدأنا التاريخَ السُكّانيّ المُبكّر في نطاق "بعلبك" بعد الفتح الإسلامي بنصٍ وحيد ، فكذلك الأمرُ بالنسبة لتاريخهم المُوازي في الشمال ، على المقلَب الآخر لجبل "لبنان" ، الفاصل بين "البقاع البعلبكي" في الداخل و مدينة "طرابلس" على الساحل . فكأنّ حظوظَ هذا العمل مَنوطةٌ بالنصوص الفريدة . وما هي في الحقيقةِ مسألةُ حظوظ . ولكنّنا نعملُ في الجانب غير المَرأيّ من التاريخ . حيث نخضعُ للرقابةِ المُحكَمَةِ التي وجّهتْ عملَ أُولئك الذين سجّلوا التاريخَ الرسميَّ المكتوب ، فوجّهوا عيناً عوراء لشؤون العباد . حتى وإنْ تكُن عيونُ أُولئك الرُّقباء قد أكلها الترابُ منذ قرون .

ومثلما بدأنا التأمُّلَ هناك من أنّنا لا نعرفُ "البقاعَ البعلبكيَّ" إلا شيعيّاً ، فإنّنا هنا نقولُ أنّنا لا نعرفُ مدينة "طرابلس" وما والاها ، في القرون الخمسة الأُولى من عُمرِها بعد الإسلام ، إلا شيعيّةً أيضاً . لا نستثني من ذلك إلا منازلَ أسلاف الموارنة ، التي أشرنا إليها وعرفناها في الفقرة الخامسة من الفصل الأول .

وعليه فإنّنا نطرحُ هنا السؤالَ نفسَه الذي طرحناه هناك . ونُجيبُ عنه بجوابٍ مبدأيٍّ مثل الذي أجبنا به هناك . خلاصته أنّنا حين نتساءلُ عن علّة وجود أُولئك السُّكان الشيعة في "طرابلس" وما والاها ، فإنّ علينا ، لأسبابٍ واضحةٍ جدّاً لدى القارئ الحصيف ، أن نبحثَ عن عاملٍ سُكّانيٍّ نزل المنطقةَ من خارجِها . أي عن حركةٍ سُكّانيّةٍ كبيرةٍ ، حملتْ إليها هذا العامل البشري وثقافته .

(٢) النصُ المفتاح لنزول الهمْدانيين

نطاق طرابلس

يقولُ النّصُّ : "**وبالجبل المعروف بالظّنّيين من الشام فرقةٌ من همْدان**". وهو نصٌّ مُذهلٌ في وضوحه وبيانِه . لم نتمتّع بمثله في كل ما عالجناه من أمر نطاق "بعلبك" وغيرها . وإنْ أنسَ فلا أنسى أنّني ، يومَ وقعتُ عليه لأوّلِ مرّةٍ حيث لم أكُن أحتسب ، أُصبتُ بما يُشبهُ الرّعدةَ لبضعِ دقائق . فلقد كان فوقَ ما أتمنّى . فكأنّه رميةٌ عن غير قصدٍ أصابتْ قلبَ المرمى. والحقيقةُ أنّه كان مفتاحَ كلِّ ما بحثْتُهُ على إشكاليّةِ الامتلاء السُّكاني للمنطقةَ الشاميّةَ بعد الفتح خلافاً لكلِّ التهيُّؤات الكامنة فيها . بحيثُ أنّني طفقتُ من بعده أُنقّبُ عن النصوص ذات العلاقة وأقرأُها قراءةَ مَن يعرفُ عمّا يبحث . وهذا تقدُّمٌ كبيرٌ في آليّةِ البحث .

(٣) تحليلُ النصّ

مهما يكُنْ ، فإنّ النصَّ مُركّبٌ من عنصريَن :

. جغرافيو بشريٌّ هو "الجبل المعروفُ بالظّنّيين" .

. إنسانيٌّ هو "فرقةٌ من همْدان" .

الجغرافيو البشريُّ مُكوّنٌ بدوره من عنصريَن . أوّلهُما طبيعيٌّ هو "جبل" ، والثاني سُكّانيٌّ هو "الظّنّيين" .

أمّا "جبل" فهو بغنىً عن التعليق . الإشكالُ محصورٌ في العنصر السُكّانيّ : "الظّنّيين" . ولذلك فإنّ علينا أن نُعالجَه بما يُمكن . ولكنّنا نقولُ قبلُ أنّ الاسمَ ما يزالُ مُتداولاً حتى اليوم ، بعد أن تطوّر إلى "الضِّنّيّة" . وهو تطوّرٌ مفهومٌ ، ومن ضمن قواعد انتقال الكلمة من الفُصحى إلى العامّيّة . حيثُ تميلُ إلى ما هو أخفُّ على اللسان .

والمعروفُ المُتداوَلُ أنّ كلمة "الظّنّيين" تعني فرقةً شيعيّةً سكنتْ الجبلَ المنسوبَ إليها . ومثلُ هذا أمرٌ شائعٌ في المنطقة . ومن ذلك الجبلُ المُسمّى اليوم "جبل العلويين"، الذي كان يُسمّى من قبل "جبل بُهَراء" ، نسبةً إلى بطنٍ من قبيلة قُضاعة الشاميّة . و"جبل عامل" أو "عاملة" ، نسبةً إلى بني عاملة اليمانيين . و "وادي التّيم" ، نسبةً إلى بني تيم الله بن ثعلبَة . وهذه التسمياتُ تحكي جانباً مُهمَلاً من قصة التبدُّلات السُكّانيّة على "الشام" . سواءٌ تلك التي حصلتْ قبلَ الإسلام أم بعدَه . كما تحكي المُضطّرَبَ

العقيديَّ الذي خاض فيه المجتمع الإسلاميُّ . فهي إذن وثائقُ ثمينةٌ ونادرةٌ ، سُجّلتْ فيها أجزاءٌ من تاريخٍ ضائع .

لكنّ المشكلةَ أنّه ليس هناك ، فيما نعرف ، فرقةٌ شيعيّةٌ أو غير شيعيّةٍ حملت اسمَ "الظّنّيين" ، أو أيَّ اسمٍ يمكن أن تُشتقَّ منه نسبةٌ كهذه . ومن الصّعب جدّاً قبولُ فكرةِ أنّ فرقةً أو أهل مذهب تكونُ من الكثرة بحيثُ تملأُ منطقةً واسعةً وتمنحُها اسمَها، ثم لا نجدُ لها ذكراً في المُصنّفات الكثيرةِ الموضوعة على إحصاء الفِرق الإسلاميّة . وهي التي اعتنت بذكر تمذهُباتٍ مؤقّتةٍ وصغيرة ، دارتْ على أُمورٍ تافهة ، ثم بادتْ دون أن تُخلّفَ أيَّ أثرٍ على صعيدَي الفكر والناس . أضف إلى ذلك أنّه من المُستبعَدِ جداً أن تُطلقَ فرقةٌ على نفسِها مثل هذا الاسم الذي يشي بالحَيرة والبُعد عن اليقين .

لذلك فإنّنا نميلُ مؤقّتاً إلى القول أنّ اسمَ "الظّنّيين" هو تحريفٌ عن اسمٍ غير عربي ، آراميٌّ مثلاً ، أي أنّه سابقٌ على الإسلام .

ومع ذلك فإنّ للقولِ بأنّه لفرقةٍ من الشيعة مغزاه غير الخفيّ بالنسبة لبحثنا . كامنٌ في أنّ الذين تناقلوه لم يجدوا تعليلاً له يمكن قبولُه ويتناسبُ مع ما هو مُرتكزٌ في الأذهان ، سوى بالقول أنّه مأخوذٌ من اسم جماعةٍ شيعيةٍ عمرته . ممّا يُشيرُ إلى ارتكازٍ قويٍّ ومشهورٍ وموضعُ تسالُم بحيث لا يمكن تجاوزُه ، يقولُ أنهم حصراً

من الشيعة ، العُمّارُ التاريخيّون لهذا الجبل . هذا الارتكاز يتصلُ بسياقٍ تاريخيٍّ ، نعرفُ ويعرفون منه ما يكفي ، ظلّ مستمرّاً حتى الصليبيين .

وعلى هذا فإنّنا لانرى أنّ لكلمة "الظّنّيين" علاقةً موضوعيّةً بما نحن فيه .

(٤) سؤالان يطرحُهما النص

بالنسبة للشقِّ الثاني من النصّ "فرقةٌ من همْدان" فإنّه يطرحُ سؤالَين :

. أوّلهما مُباشِرٌ يتعلّقُ بحجم الوجود الهمْداني في "جبل الظّنّيين" ، ذلك المُشار إليه بـ "فرقة"" .

. ثانيهما غير مُباشِر ، ولكنّه جزءٌ أساسٌ من طبيعة عمل المؤرّخ ، يتعلّقُ بتاريخيّة ذلك الوجود .

أمّا كلمة "فرقة" فإنّها لا تدلُّ بنفسها على عديدٍ يُمكن تحديدُه ، وإن بنحوٍ تقريبيّ . ولكن مادام هذا الوجود ملحوظاً بحيث سُجّلَ ، على الرُّغم من أنّه يستقرُّ في بقعةٍ ظلّتْ لمدّةٍ طويلةٍ بعيدةً عن مجرى الأحداث ، فإنّ هذا يدلُّ على أنّه كان وجوداً بارزاً ومن عديدٍ كبير .

لكنّ الكلمةَ تنطوي على معنىً يتصلُ بالسؤال الثاني. هو أنّهم ، أعني الهمْدانيين النّازلين "جبل الظّنّيين" ، هم جزءٌ من

جماعةٍ افترقتْ إلى غير فرقة . واستعمالُ الكلمة بالذات يُشيرُ إلى أنّ هذا الانتشار الهمْداني كان على نحو فِرَق ، وأنّ ذلك كان معروفاً مركوزاً في أذهان المُتصلين بهذا الشأن بدرجةٍ أو بغيرها. كما أنّه يتناسبُ مع ما نعرفُهُ من انتشارٍ همْدانيٍ في أقطار "الشام" . وقفنا عليه في أطراف "بعلبك" . فضلاً عن مدينة "حمص" وعدّة قُرى في نطاق "دمشق" ، ممّا يخرجُ الكلامُ عليه عن ميدان بحثنا .

هذا التحليلُ بمُجمله ذو فائدةٍ مُزدوجةٍ لِما نُعالجهُ الآن . فهو ، من جهةٍ ، يدلُّ على أنّ عديدَ الهمْدانيين الذي نزلوا "جبلَ الظّنّيين" ، قادمينَ من "الكوفة" ولا ريب ، لم يكُنْ قليلاً . وهو ، من جهةٍ ثانيةٍ ، يدلُّ على أنّ نُزولَهم حصلَ في الوقت نفسه الذي نزلَ فيه فرقةٌ أو فِرَقٌ من إخوانُهم منازلَهم الأُخرى ، وربما غيرَها ممّا لم نُحِطْ به علما .

ثم أنّه إذا صحَّ أنّ أسلافَ الموارنة قد شرعوا ينزلون أعالي جبل "لبنان" الشماليّة في أواخر القرن السابع الميلادي ، بعد أن اضطروا إلى ترك مواطنهم السابقة ، كما يُرجّحُ أكثرُ المؤرّخين المُختصّين ، . فإن اختيارَهم الأعالي الباردة القاحلة ، دون الهضاب العالية الأدفأ وذات الأراضي السّهلة الاستصلاح نسبيّاً ، أعني "جبل الظّنّيين" أو "الضِّنّيّة" ، ليدلُّ دلالةً شبهَ أكيدةٍ على أنّ هذه كانت مأهولةً بالسَّكّان في ذلك الأوان . بحيثُ حالَ ذلك بينهم وبين نزولِها ، وألجأهم إلى ذلك الاختيار الأسوأ .

(٥) بنو ربيعة في المنطقة

بالإضافة إلى تلك الهجرةِ الهمْدانيّة التي يجب أن نعتبرَها الأساسَ في الامتلاءِ السُكّاني التاريخي في شمال "لبنان" ، وتالياً في ساحله ، وبالأخصّ في مدينة "طرابلس" المُجاورة كما سنعرف ، . فقد رصدنا وُجوداً موازياً لبني ربيعة في منطقةٍ مجاورة . ولقد سبق لنا أن وقفنا على شيءٍ من تاريخ ربيعة المُسانِد للإمام علي (عليه السلام) بـ "الكوفة" في الفقرة الثانية من الفصل الثاني . ممّا يصلُحُ دليلاً وافياً على تشيُّعها ، وبالتالي مُسوّغاً لنظْمها في هذا البحث .

نُشير بذلك إلى "عِرْقَة" ، التي يقولُ البُلدانيُّ ابن واضح اليعقوبي أنّها كانت في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي "كورة" ، أي ما يُشبه القضاءَ في العُرف الإداري اليوم . مركزُهُ مدينةٌ تحملُ الاسمَ نفسه ، يصِفُها بأنّها "قديمة" . وهي اليوم دارسة ، على هضبةٍ غير بعيدةٍ عن "طرابلس" إلى الشمال منها .

المُهمُّ أنّه يختمُ كلامَه عليها بالقول : "وبها قومٌ من ربيعة" .

ونحن قد عرفنا فيما مضى فضلَ هذا الرّائد العظيم على بحثنا . ويبدو لنا الآن فيما سجّله على "عِرْقَة" من معلومات ، ما يؤكّدُ لنا تمكُّنَه وحِرصَه على استقاء معلوماته من المُلاحظة الدقيقة المباشرة لموضوعها . ويدعونا إلى الأخذ دون تردُّد بما يقوله على

التركيبة السُكّانيّة للبلدان التي رصدَها ، ممّا يدخلُ في نطاق بحثنا .

هذه العبارة ، المؤلّفة من بضع كلمات ، سجّلَ فيها اليعقوبيُ دون أن يقصد ، بل ربما دون أن يعرفَ قيمتَها ، لأنّه في هذا جغرافيٌّ يرصدُ ويصِفُ ما يراه وليس مؤرّخاً ، . معلومةً في غاية الأهمّيّة عن إحدى البدايات الكُبرى للهجرةِ إلى "لبنان" . وممّا يجدُرُ بنا ذكرُه أنّه سجّلَ أيضاً بعبارةٍ مُماثلةٍ تماماً وُجوداً لربيعة نفسِها في "الغوطة" المُطيفة بـ "دمشق" . وهو خارجَ دائرة بحثنا ، ولكنّه يُشيرُ ضمناً إلى أنّ هجرةَ ربيعة لم تكُن محصورةً بـ "عِرْقَة" ، أي أنّها كانت مُتعدّدةَ المنازل كهجرة همْدان . وإن تكُن هجرة ربيعة أقلَّ اتساعاً من هذه فيما يبدو .

لكنّ هذه المعلومة تطرحُ إشكاليتيَن .

. الإشكاليّة الأولى تطرحُ سؤالاً عن تاريخ هجرة ربيعة ونزولِها "عِرْقة".

والحقيقةُ أنّنا بعد البحث لم نظفر بأيّ دليلٍ خاصٍ أو مُلابسَةٍ أو إشارةٍ تُساعد على جلاء هذه النقطة . لكنّ ما يُخفّفُ من وقْعِ هذا النقص ، أنّه ما من سببٍ يدعونا إلى القول أنها كانت بتاريخٍ مُختلفٍ عن هجرة الهمْدانيين ، ما دامت أسبابُ الهجرة هي هي عند هؤلاء وأُولئك . خصوصاً وأنّها لم تكُن قليلةَ العدد ليُقال ، مثلاً ، أنّها هجرةٌ تقتصرُ على الأُسرة فأكثر قليلاً ، من آلاف

الهجرات الصغيرة التي تدفّقت على "الشام" ، وظلّت تتابعُ مدّةً طويلةً ، قادمةً غالباً من "العراق" . ولها يدينً "الشام" بالامتلاء سُكّانيّاً ، بعدما عاناه من فراغ سُكّانيٍّ عقب الفتح الإسلامي .

لذلك فإنّنا نُرجّحُ أن هجرة ربيعة إلى "عِرقة" وغيرها قد حصلت أيضاً بعد اغتيال الإمام الحسن (عليه السلام) سنة خمسين للهجرة .

. الإشكاليّةُ الثانية تنظرُ إلى ما سبق لنا أن قُلناه ، أنّ المسلمين ظلوا لمُدّةٍ طويلةٍ ، زُهاءَ القرن ونصف ، بعد الفتح الإسلامي يجتنبون سُكنى السواحل ، خشيةَ الغارات الروميّة البحريّة المُفاجئة . فكيف نجمعُ بين هذا ، وبين موقعها على الساحل (ساحل قضاء"عكّار" اليوم) بوصفه منزلاً للمهاجرين الأوائل من ربيعة ؟

والحقيقةُ أنّ الذي دعاني إلى إثارة هذه الإشكاليّة ، هو أن المصادرَ الجغرافيّة الحديثة تصفُ موقعَ "عِرقة" الدّارسة بأنّها على ساحل قضاء "عكّار" اليوم .الأمرُ الذي قد يودعُ في ذهن القارئ ما ذكرناه من تعارض . ولكننا بعد زيارة الموقع تبيّن لنا أن ما تقولُه تلك المصادر هو بشيءٍ من التجوّز في كلمة "ساحل" ، وأن موقع "عِرقة" يبعدُ عن شاطئ البحر زُهاء الثلاث كيلو مترات ، ويرتفعُ عن مستوى الماء زُهاء المائتي متر . وهذا كافٍ لمنحه مقداراً

كافياًً من الحصانة تجاهَ الغارات البحريّة الروميّة ، ويجعل نزولَ أولئك المهاجرين فيه أمراً مقبولاً من حيث المبدأ .

* * *

هكذا بدأ التاريخُ الحيُّ لِما أصبح بعد قرون"لبنان"السياسي بحدوده المعروفة . بل هكذا ، مع الأخذ بعين الاعتبار نزولَ أسلافِ الموارنةِ أعاليَ جبل "لبنان" ، بدأ التاريخُ الحقيقيُّ لـ "لبنان" ، كما هو مُستمرٌّ حتى اليوم .

—

الفصل الخامس

—

المهاجرون في مواطنهم الجديدة

(١) في أطراف بعلبك

لسنا نعرفُ لا قليلاً ولا كثيراً عمّا اضطربَ فيه النازلون في أطراف "بعلبك" سهلاً وجبلاً . لكنّنا ما نشكُّ في أنهم قبعوا حيثُ هم . جماعاتٌ مُهمّشةً بكلّ المعاني . لا تنظرُ إلى أبعد من البُقيا حيّةً . في ظلّ نظامٍ سياسيٍّ قاهرٍ ينظرُ إليهم بعين الرّيب وأكثر، نظراً لتاريخهم المُعادي .

ونتصوّرُ تصوّراً لا بديلَ عنهُ ولا مَعدى منهُ إلى غيرِهِ ، أنّ قاطني قريتي "إيعات" و"تمنين" في السهل اعتمدوا في أمر معيشتهم ، دون كبير مشقّةٍ ، على زراعة الأرض إلى جانب تربية المواشي . وهم القادمون من "اليمن" ، حاملين معهم خبراتٍ مُتقدّمةً في هذا وذاك .

أمّا قاطنوا الهضاب الشرقيّة لـ "بعلبك" وجُرْدِها ، فقد كان وضعُهم أكثرَ صعوبةً بما لا يُقاس. كان عليهم أن ينتزعوا لقمةَ عيشهم من الأرض الصخريّة الشّحيحة . وفي سبيل ذلك عمدوا إلى بناءِ الجلولِ الحجريّةِ على المُنحدَرات ، ابتغاءَ تكوين

تجمّعٍ ترابيٍّ خلفَها على شيءٍ من الخصوبة . ولا تزال آثارُ هذه الجلولُ تملأُ الهضابَ في سلاسلَ لا نهايةَ لها ، شاهداً مادياً حيّاً على المُعاناة الهائلة التي ركبها أسلافُنا هناك .

ولعلّهم مع تنامي عدديهم ، وتكيُفهم البطيء مع بيئتهم ، طفقوا يُربون قطعانَ المعزى للاستفادة من لحومها ومن ألبانها الممتازة . وأيضاً ما تزال آثارُ المساحاتِ المُسوّرة ، المُخصّصةِ لحفظ القطعان ليلاً ، المُسماةُ اليومَ (مْرَاحات) ، تملأُ الهضابَ والجُرد . والظاهرُ أنّهم كانوا يهبطون ببضاعتهم من الألبان والأجبان إلى مدينة "بعلبك" المجاورة لتصريفها . ومن هنا سُمّي بابُ المدينة الذي يعبرونه داخلين وخارجين "باب همْدان"، كما عرفنا فيما فات . ممّا يدلُّ على أن الحركةَ فيه كانت على حدٍّ مُناسبٍ من الكثافة .

وحتى اليوم أيضاً فإن الطريق المُفضي إلى الأعالي ، انطلاقاً من الموقع الذي كان فيه "بابُ همدان" ، ما يزالُ يشهدُ في البواكير ، خصوصاً في فصلي الربيع والصيف ، قوافلَ الرُّعاة القادمة من الجبال، خصوصاً من قريتي "الجُبّة" و"عسال الورد" ، تحملُ الألبانَ والأجبانَ الطيّبة إلى حيث يجري تصريفُها في المدينة .

نرسمُ هذه الصُّورة لِما اضطربَ فيه أُولئك الأسلاف ، ليس عن نصٍّ مكتوب ومعلوماتٍ مُحرّرة . وأنّى لهؤلاء المساكين مَن

يكترثُ بهم وبشؤونهم ، ويهتمّ بكتابة تاريخهم ! ومتى كان مؤرّخونا الأشاوس يرمون بأنظارهم إلى أمثالِهم . وهم المُعلّقو القلوب بأخبار أهل السُلطة ؟! وإنّما عن ما تقتضيه الظروف الطبيعيّة والاجتماعيّة التي عاشوا تحت تأثيرها ، وما تُمليه عليهم وتُتيحُهُ لهم من ضُروب السّعي في مناكبِها لتحصيل لُقمة العيش . ومعلومٌ أنّ سلوكَ الناس وما يجترحونه للبقاء من قبلِ هؤلاء ومن بعدِهم ، سواءٌ على هذا المُستوى أم على ما هو أكثر تعقيداً ، ما هو إلا مجموعةُ تكيُّفاتٍ مع الظروف والمُحيط .

ثم أنّ المؤرّخَ الإنسانيَّ العارفَ المُتمرّسَ لايستهينُ أبداً بمغزى ماهو فعليٌّ قائمٌ حتى اليوم من تلك الملاحظات ومثلِها ، التي انطلقنا منها لعمارةِ صورةٍ لمُضطرَباتِ عيشِ أولئك المهاجرين . ذلك لأنّ علاقاتِ الانتاج كثيراً ما تضربُ عميقاً في أعماق التاريخ ، مُستندةً باستمرارِها إلى تقاليدَ نضجتْ واستوتْ وثبتتْ قبل قرون . ولا تتغيّرُ إلا تبعاً لتغيُّرِ تلك التقاليد ، وهذه تبَعاً لتغيُّرٍ كبيرٍ في أدوات الإنتاج أو التسويق .

على أنّ ذلك لا يعني أنّ حالَ أُولئك جميعاً قد ثبتَ عند تلك الصورة الكئيبة . بل إنّ هؤلاء الذين وصفنا حالَهم اليوم ، وقلنا أنّ نمطَ حياتهم وإنتاجَهم هو استمرارٌ لنظام علاقاتٍ وتقاليدَ عملٍ تاريخيّةٍ ليسوا إلا استمراراً للنمط ، بما فيه من حالةٍ سُكّانيّةٍ وتقاليدِ عملٍ ، قد يكونُ بعضُها سابقاً عليهم . أمّا المهاجرون الأولون

أنفسُهم فقد خضع وُجودُهم فيما بعدُ لقوانين أُخرى . في رأسها التناسُب بين طاقة الأرض الإنتاجيّة وعديد قاطنيها . وعندما ينكسرُ التناسُب ، بسبب النموّ العدديّ للسُّكان ، تبدأُ حركةٌ سُكّانيّةٌ إلى حيثُ يحصلون على حاجاتهم الأساسيّة . وسنقفُ فيما يأتي على ما نعرفه من تطوّر الأحوال بأولئك المهاجرين بما يتناسبُ مع هذا القانون .

(٢) في شمال لبنان

أمّا نُزّالُ شمالِ "لبنان" جبلاً وساحلاً ، أي همْدانيو "جبل الظنّيين" / "الضِّنِّيّة" وبنو ربيعة نُزّال "عِرْقة" ، فإنّ لهم قصّةٌ أُخرى .

ومنشأُ الاختلافِ بين القصتيَن هو من اختلاف الظروف التي اضطربَ فيها هؤلاء وأُولئك . وبالدرجة الأُولى من خصوبةِ الأرضِ وقابليّتها الممتازة للزراعة في هضاب "الضّنّيّة" وفي "عِرقة" . بالإضافة إلى نسبة الأمطار العالية في تلك الهضاب المُشرفة على البحر ، حيث تستقبلُ في موقعِها كميّاتٍ كبيرةٍ من الرياح المُشبَعَة بالرطوبة ، لتُفرغها بشكلِ مطرٍ في موسم الأمطار أو ندىً في غيره . بحيثُ يمكنُ أن تقومَ بمعيشة أضعافِ عديدِ نُزّالها ، مهما تصورناه كبيراً. في مُقابل شُح الأرض والمطر، أو شُحّ المطر فقط ، بالنسبة لهذا الفريق أو ذاك من نُزّال أطراف "بعلبك".

ولكنّنا مع ذلك فإنّنا ما نشُكُّ في أنّهم قبعوا هناك حيث هم أيضاً ، جماعاتٌ مُهمّشةٌ لا تنظرُ إلى أبعد من البُقيا على قيد الحياة ، للسبب نفسه الذي قُلناهُ على إخوانهم . ثم أنّنا ما نشُكُّ في أنّهم انتزعوا أسبابَ معيشتهم من الأرض. وإن يكُنْ الأمرُ أسهلَ بكثير بالنسبة إليهم .

لكنّ ما شكّلَ الفارقَ التاريخيَّ الكبيرَ بين الفريقيَن فيما بعد، هو أنّ الحِراكَ التالي بالنسبة لبعض نُزّال أطراف "بعلبك" ، أعني بالخصوص نُزّال الهضاب والجُرد شرق "بعلبك" ، فقد خضعَ لقانون التناسب أو انكساره بين طاقةِ الأرضِ الإنتاجيّةِ وتكاثُرِ السُّكّان . بحيث يبقون حيث هم طالما كانت طاقةُ الأرضِ الإنتاجيّةُ تقوم بأودهم . حتى إذا عجزتْ فإنّهم سينتجعون حتماً مُتحوّلين إلى سُكنى أرضٍ غيرّها . خصوصاً وأنّ السهلَ المُجاورَ كان ما يزالُ فقيراً بالسكان ، بحيثُ يُقدّمُ لهم فُرَصاً سهلةً للانتجاع والسُّكنى .

امّا بالنسبة لنُزّال شمال "لبنان" ، فقد خضعَ حِراكُهُم القادم للفرصة الكبيرة والمُغرية التي كانت بانتظارهم ، بالانتشار هابطين إلى حيث مدينة "طرابلس" المُجاورة . وهي التي عرفنا أنّها كانت سالمةً مادّيّاً ، ولكنّها عقيمةٌ أمنيّاً . أي أنّ الحِراكَ التالي ، على اختلاف مُحرّكاتِه ، كان حتميّاً بالنسبة للاثنيَن ، بالنظر إلى حالة الفقرالسُكّاني الذي كان "لبنانُ" يعاني منه في ذلك الأوان . بحيثُ كان يُقدّمُ فُرصاً سخيّة لكلِّ مَن تُحدّثه نفسُه ، لسببٍ أو غيره ،

باستبدال وطنه . سواءٌ كان قادماً من الخارج ، أم مُتحولاً من الداخل .

—

الفصل السادس

—

تطوّر الأحوال بـ "بعلبك" ونطاقِها

(١) الهمدانيّون غائبين من التاريخ

مثلما هو مُتوقّ ّعٌ ، فإنّ نُزّالَ هضاب وجُرد "بعلبك" من المهاجرين الهمْدانيين يغيبون من التاريخ تماماً بعد فترة استقرارهم الأُولى . وذلك أمرٌ مفهوم جدّاً ، كما أنّه معروفُ الأسباب لدى القارئ الحصيف . فمن ذا الذي يهتمُّ بذكر شعبٍ من الرُّعاة والمزارعين ، يعيشون مُنعزلين في الجبال . فلم نُلاحظ أدنى ذكرٍ لهم طوالَ قرون . والحقيقةُ أنّني بعد الترصُّد الطويل لأدنى إشارةٍ ، يُمكن أن تكون ذات علاقةٍ بهم وبشؤونهم في مختلف المظانّ على تنوّعها ، لم أقعْ على ما يستحقُّ الذكر . نعم ، الإشارةُ الوحيدة لوجود شيعةٍ في تلك البقاع ترجعُ إلى السنوات الأخيرة من العهد المملوكي ، عشيّةَ الفتح العثماني لـ "الشام" ، أي في خواتيم القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد . وذلك في أحد مصادر التاريخ الإنساني النادرة في الإسلام ، أعني بذلك مُذكّرات شهاب الدين أحمد بن طوق الدمشقي الثمينة ، الذي حقّقتُهُ ونشرتُه في "دمشق" بعنوان (التعليق) . وهو من أبناء منطقةٍ مُجاورةٍ لمنطقة عملنا .

في مُذكّراته يقفُ بنا ابنُ طوق بضعَ مرّات على ذكر أُسرتين شيعيّتين كبيرتين ، تعيشان في قرية "الجُبّة" ونطاقِها . وهي قريةٌ في الجبال شرق "بعلبك" ما تزال تُعرف بالاسم نفسه . ولكنّها غدت ضمن أراضي الجمهورية السوريّة . وأن الأُسرتين كانتا تتنازعان الزعامةَ المحلّيّة بصفة (مُقدّم) ، أي جابي ضرائب ومُكوس . هما آل (الحرفوش) ومَن يُسمّيهم آل (علوطة) . وأنّه كان لكلٍّ منهما عصبيّةٌ كبيرة ، بحيث كانتا تتنازلان بجَمعٍ كثير . وهي معلومةٌ فريدةٌ ، لا ثاني لها في كلّ ما وصلنا عن تلك الفترة وقبلها. وتدلّ على كثافة الشيعة سُكّانيّاً ، وسيطرتِهم على تلك المنطقة . ممّا يُمكنُ اعتبارُه استمراراً لسيطرتِهم السُكّانيّة التاريخيّة .

والجديرُ بالذكر أنّ أخلافَ آل (علوطة) ، حسبَ ابن طوق، ما يزالون وما تزال أملاكُهم في الهضاب الشرقيّة لـ "بعلبك" حتى اليوم، حيث يُعرفون بآل (العوطة) ، (نظنُّ أنّ ما أثبته ابن طوق على اسم الأُسرة خطأ) . وما ذلك إلا نتيجةٌ لانتصار خصومهم آل (الحرفوش) عليهم في معركة النفوذ. فانكفأوا حيث هم وما يزالون .

أمّا آلُ (الحرفوش) ، فإنّهم ساروا مع الحركة السُّكّانيّة العالقة ، التي سلكتْ شيئاً فشيئاً سفوحَ سلسلةِ "جبل لبنان" الشرقيّة المُشرفةِ على "سهل البقاع" . ليستقرّ بها وبهم المقامُ لمُدّةٍ في بلدة "سرعين" الجبليّة . ثم ليهبطوا منها إلى مدينة "بعلبك" وبعضِ قُراها ، حيث

مايزالُ لهم بعض الأملاك العقاريّة حتى اليوم . ثم حيث انتهوا أُمراءَ على كامل "البقاع" الشرقي . ولتمتدّ إمارتُهم في الزمان بضع قرون . ولتمتدّ في المكان حيناً إلى مدينة "حمص" وسط "سورية" وإلى بعض أجزاء "البقاع" الغربي . وسنقفُ على تفصيل كلّ ذلك فيما سيأتي .

(٢)الهمّدانيّون في بعلبك وسهل البقاع

أمّا على المقلب الآخر من "أطراف بعلبك" ، حيث قلنا أنّ فريقاً آخر من بني همْدان نزلَ السهلَ المُطيفَ بـ "بعلبك" ، فقد أخذت حركتُهم السُّكّانيّة منحىً مُختلفاً . التكاثُرُ السُّكّانيُّ عبّرَ عن نفسه بالانتشار في أنحاء السهل ، حيث تتوفّرُ الفُرصُ الممتازةُ للانتاج الزراعي والانتاج الحيواني الرّديف . ولكن كان هناك أيضاً إغراءُ ونداءُ المدينة المُجاورة . وعليه فقد كان من الطبيعيّ أن يتجهَ قسمٌ من الكثافةِ السُّكّانيّةِ المُتزايدةِ نحو "بعلبك" . التي كانت في ذلك الأوان ، وكانت القرية المُجاورة لها "يونين" ، أحدَ المراكزِ الحنبليّةَ النادرة في المنطقة الشاميّة إجمالاً . ولعلّ تلك الحركةَ العالقةَ قد أخذتْ في بدو أمرها شكلَها النّمَطيّ: مُزارعون يقصدون المدينة لتصريف إنتاجهم وللتزوّد بحاجاتهم . ثم ليستقرَّ بعضُهم فيها . وهكذا بدأتْ بُنيةُ المدينةِ ذاتُ الهُويّة الوحيدة تتغيّرُ باتجاهِ هُويّةٍ مُزدوجةٍ حنبليةٍ . شيعيّة . ولكنّ الضغطَ الشيعيَّ لم يتوقّف .

لأنّه يتزوّدُ بمادةٍ لا تتوقفُ هي أيضاُ عن التكاثُر في المُحيط . وشيئاً فشيئاً بدأ حنابلةُ المدينة يهجرونها باتجاه حي "الصّالحيّة" الجديد في "دمشق" . ابتغاء الانضمام إلى إخوانهم القادمين من "القدس" . واليومِ لم يبقَ من آثارهم في "بعلبك" إلا مسجدُ المدينة القديم المُسمّى "مسجدُ الحنابلة" . وإلى وقتٍ قريبٍ قناةٌ تحتيّةٌ توزّعُ الماءَ على بيوت المدينة القديمة من نبع "راس العين" كان اسمُها "ماءُ الحنابلة" لأنها تُغذّي "مسجد الحنابلة" .

(٣) تحوّلات البُنية السُكانيّة لبعلبك

نقرأُ هذه التحوّلات الجذريّة في بُنيةِ المدينةِ السُكّانيّة في سيرةِ رجلين من معارف أبنائها (وفي هذا تصديقُ قولنا أنّ سِيَرَ الرجال من أهمّ مصادر التاريخ الإنساني). أوّلُهما ابن معقل الحمصي ، والثاني ابنُ ملّي البعلبكي .

تمام اسم الأوّل : أحمد بن علي بن معقِل (توفي : ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦م) . الفقيهُ واللُغويُّ والشاعر . الذي دخل التاريخ بوصفه آخرَ فقيه شيعي نعرفُه وُلد وعاش في "حمص". ولكنّه هجر مدينته بعد أن تغيّرتْ بها أحوالُها ، تبعاً للمتغيّرات السياسيّة الجذريّة التي نزلتْ بوسط وشمال "سوريّة" ، بتأثير العناصرِ العسكريّةِ القادمةِ من أطراف العالَم الإسلاميّ ، راكبةً موجةَ جهادِ الغُزاة الصليبيين .

نزلَ ابنُ معقل مدينةَ "بعلبك" . حيث التقى بالمُتغيّر السُّكّاني العالق فيها ، الذي كان آخذاً بتغيير وجه المدينة شيئاً فشيئاً ، تغييراً بطيئاً ولكنّه ثابت . وكانت المدينةُ يومَ نزلها إمارةً يحكمُها أميرٌ أيوبيٌّ هو الأميرُ الشاعرُ بهرام شاه الأشهر بلقبه (الملكُ الأمجد) . الذي استمرّتْ إمارتُهُ عليها تسعةً وأربعين سنةً قمريّةً عدّاً (٦٢٧.٥٧٨هـ / ١٢٢٩.١١٨٢م). ممّا كان سبباً في ضمانِ حدٍّ من الاستقرار والهدوء في منطقة حُكمه . وهذا يدلُّ على ما كان الأميرُ يتمتّعُ به من براعةٍ سياسيّةٍ وديبلوماسيّة ممتازةٍ . بحيث أنّه أفلحَ في الاحتفاظِ بإمارته على المدينة مدّةَ نصف قرنٍ تقريباً . وهو إنجازٌ غير عاديّ بل فريد ، في عصرٍ كان الحُكمُ فيه تركةً أيّوبيّةً ، يتنازعُها أُمراءُ المُدُن الأيوبيّون فيما بينهم . لا يتورّعُ أحدُهم في سبيل السُّلطة عن وسيلةٍ من وسائل الحرب أو دسيسةٍ من دسائسِ السياسة .

بُغيتُنا من هذا السّرد أن نصِفَ العلاقةَ المتينةَ والمديدةَ التي قامت بين الفقيه والأمير ، وما تنطوي عليه من دلالةٍ تاريخيّةٍ . وذلك استناداً إلى ما سجّله عن هذا وذاك مؤرّخان مُعاصران كبيران هما الذهبي والصفدي بعباراتٍ مُتفاوتةٍ في براعتها وقوّةِ تصويرها . ولكنّها ، على كلّ حال ، صادرةٌ عن حسٍّ تاريخيٍّ نعرفُهُ عند كبار المؤرّخين .

والذي يؤخذُ من كلام المؤرّخيَن، أن الفقيهَ الذي نزل "بعلبك" نزولَ طالبِ أمن، قد حظي عند الأمير ونفقَ عليه ، وأنّ هذا قرّرَ له راتباً معلوماً (جامكيّة) . وذلك أمرٌ على المؤرّخ اليومَ أن يلتقطَ مغزاه . وما من ريبٍ في أن المغزى كامنٌ فيما يعملُ عليه ويرجوه هذا وذاك . ثم مامن ريبٍ في أنّ الأمير، وهو الذي عرفناه سياسيّاً مُحنّكاً ، كان يعي بما يكفي أنّ من أوّلياتِ فنِّ الحكم وجودُ قنوات اتصال بين عناصرِ الجمهور ورأسِ السُلطة. نعرفُهُ اليومَ بشكل مؤسّساتٍ سياسيّةٍ . ولكنّها كانت في تلك الأيّام قياداتٌ من درجةٍ وصفةٍ ما . ومن هنا فقد كان يعي حتماً أنّ لا بُدّ له من بناء قناة اتصال بينه وبين أُولئك الشيعة المُتكاثرين الذين انصبّوا على مركزِ إمارته من أطرافِها . كما لا بُدّ من العمل على دمْجهم في القوالب الاجتماعيّة القائمة في المدينة خصوصاً . بعد أن أصبحوا فيها حقيقةً سُكّانيّةً . سياسيّةً قائمةً لا يُمكنُ تجاهُلُها .

كلُّ ما عندنا من نصوص المؤرّخيَن ، يدلُّ بما لا يقبلُ الرّيبَ على أنّ ابن معقل نجحَ في مُهمّته ذات الجناحيَن نجاحاً باهراً . نجح في علاقته مع الأمير، بحيث أنّها ظلّت ممتازةً طيلةَ المُدّة التي بقي فيها هذا في سُدّةِ الإمارة ، بدليلِ أنّ ما كان للفقيه من حظوةٍ لم تنقلب إلى ضدّها . ونجح في رعاية شؤون أبنائه الشيعة في "بعلبك" ومنطقتِها ، وفي رفعِ وتقويةِ موقعِهم فيها . وقد عبّر كلٌّ من المؤرّخيَن عن ذلك بعبارةٍ تختلفُ من حيث سطوعها ،

ولكنّهما تحملان المؤدّى نفسه . حيث قال الصفدي : "و**انتفع** به . أي بابن معقل . رافضةُ تلك الناحية" ، أي "بعلبك" ونطاقها . أمّا الذهبي فقال : "و**عاش** به رافضةُ تلك الناحية" . وهذه العبارة تضعُ القارئَ وجاهَ حالةٍ تغييريّة انتقاليّة بين "عاش" وضدِّها المُفترَض . أي ما كانت إليه حالةُ الشيعة هناك ، بين ما كانوا عليه من قبل ابن معقل ، وما صاروا إليه من بعد بفضله .

أمّا تمامُ اسمِ الثاني فهو: أحمدُ بن مُحسّن بن ملّي الأنصاري البعلبكي (توفي : ٦٩٩ هـ/١٢٩٩م) . أوّلُ فقيهٍ شيعيٍّ إماميٍّ أنجبته "بعلبك" . "أحدُ أذكياءِ الرجال وفُضلائهم في الفقه والأُصول والطبّ والفلسفة والعربيّة والمُناظّرَة". بذلك وصفهُ المؤرّخُ اليافعي. "كان مُتبحّراً في العلوم ، كثيرَ الفضائل ، أسداً في المُناظّرَة، فصيحَ العبارة، ذكيّاً ، مُتيقّظاً، حاضرَ الحُجّةِ، حادَّ القريحةِ، مقداماً". كذا قال بلديُّهُ المؤرّخُ أيضاً اليونيني .

ما يهمُّنا من سيرة ابنِ ملّي ، في سياق بحثنا عن المنحى التطوّري ، الذي كانت تتجهُ إليه بُنيةُ مدينة "بعلبك" في ذلك الأوان ، أمران :

. الأول : أنّه تتلمذَ على ابن معقل الحمصي ، الذي غادرْنا ما يهمُّنا من سيرته قبل قليل . فهو، كما قلنا أعلاه ، أوّلُ فقيهٍ شيعيٍّ إماميٍّ أنجبته "بعلبك" ، تتلمذ لآخر فقيهٍ شيعي أنجبته "حمص". وهذا يدلُّ على أنّ المدينةَ المُتغيّرة قد بدأت تُدرك ذاتَها

وما هو من ذاتيّتِها . كما يدلُّ على أنّها غدتْ تملكُ الفرصةَ لمُمارسة هذه الذّاتيّة ، ضمنَ حدٍّ مقبولٍ من الحريّةِ والشعور بالأمن . وهذه قاعدةٌ إنسانيّةٌ عامّةٌ . فالأُمَمُ لا تُنجبُ المُثقّفَ المُنتمي/العُضوي إلا من ضمنَ هذه الشروط . فإذا هي افتقدتها عقُمَت .

إلا أنّ النقطةَ المُضيئةَ في سيرةِ ابنِ ملّي إلى حدِّ السُّطوع والتألُق . أنّه نجحَ في أن يكونَ ضميرَ قومه ، بل وأُمّته ، في لحظةٍ تاريخيّةٍ من أشدّ اللحظاتِ هولاً وأقساها. يوم اجتاحَ المغولُ دار الإسلام من مشرقِها ذلك الاجتياحُ المَهولُ . وشملَ اجتياحُهم المنطقةَ الشاميّةَ ، ومنها وطنَ ابن ملّي "بعلبك" سنة ٦٥٨ هـ /١٢٥٩م . فكان منه أن نظّمَ وقادَ مقاومةً شعبيّةً ناجحةً ضدّهم ، في "بعلبك" وجبالِها . في وقتٍ تهاوت فيه العُروشُ ، ولم تثبت الجيوش ، من "تركستان" إلى أبواب "مصر" .

ممّا يُفيدُ قولُهُ في التوطئةِ لهذا الجانب من سيرة البطل ابنِ ملّي وما فيها من دلالاتٍ تاريخيّةٍ ، أنّ "بعلبك" ومن قبلِها "دمشق" استسلمت للمغول دون قتال . ولكنّها كانت قد أعدّتْ واستعدّتْ بالمؤن والرجال والعتاد في قلعتها الشهيرة ، مُعتمدةً على حصانة القلعة التي لا تُطال . ثم آلت الأمورإلى الصُّلح ، بسعيٍ من أحد أبنائها المُسمّى تقيّ الدين الحشائشي . وهو رجلٌ بعلبكيُّ المولد . اشتهر بمعرفته الواسعة بالحشائشِ الطّبّيّة وخصائصِها العلاجيّة .

وبهذه الوسيلة التحق بحاشية هولاكو ، وكان في رِكابه عندما دخل المغولُ المنطقة . لكنّ هذه الحلَّ الاستسلامي لم يُطمئن كلَّ الناس ، الذين ملأت أسماعَهم أخبارُ الفظائع الرهيبة التي ارتكبها الغُزاة . فهربوا مُلتجئين إلى الجبال المُجاورة .

هكذا انقسمَ أهلُ المدينة . قسمٌ مُصالِحٌ تبعَ تقي الدين الحشائشي . وآخرُ مُقاومٌ هرب إلى الجبال ، هو نفسُهُ الذي نظّمه الشيخُ ابنُ ملّي وقادهُ ، ليشنّوا حرب عصابات . "جمع له عشرة آلاف نفر . وأنّه تسمّى بالملك الأقرع . وأنهم كانوا يتخطّفون التتر في الطُرُقات ، خصوصاً في الليل . لأنّ التترَ ما يركبون في الليل" .

هذا الجانب الرائع من تاريخ "بعلبك" ، الذي لم نطّلع عليه إلا بفضل ابن المنطقة المؤرّخ اليونيني ، ولولاه لضاع ، كما ضاعَ أكثرُ تاريخنا الإنساني ، . يُتيحُ لنا أن نقِفَ عند فاصلةٍ تاليةٍ من التاريخ فيها .لا مِراءَ في أنّها كانت، كما سنرى ، تصعيداً وإعلاءً لِما كانت عليه أُمورُها في مرحلةٍ سابقة . أعني أيّامَ ابنِ معقل .

ما من نصٍ يقولُ أنّ الفرزَ الذي حصلَ في"بعلبك" بين مُقاومين ومُستسلمين كان فرزاً مذهبيّاً . لكنّ العارفَ بطبائع الحالة المذهبيّة ، وخصوصاً بثقافتها وذاكرتِها وتجارِبِها ، لا يُمكن أن يُغمض عينيه عن هذا التصوّر .

ومن المعلوم أنّ سُكّانَ "بعلبك" المدينة كانوا آنذاك حنابلةً وشيعة . والجديرُ بالذكر هنا أنّ هذا الفرزَ المذهبيَّ يرجعُ بأُصوله إلى آخرَ أقوامي . قوامُهُ الفُرسُ الذين كانوا في المدينة قبل الفتح ، الذين قُلنا سابقاً أنهم لم يكونوا فُرساً في الحقيقة ، ثم صاروا فيما بعدُ إلى حنابلة . والهمْدانيّون اليمانيّون الشيعة الذين كانوا في أطرافِها ، ثم غدا انتقالُهُم المُتدرّجُ إلى سُكنى المدينة عاملَ التبدُّل السُّكّاني الذي يدورُ حولَه هذا التاريخ .

من المُستبعَدِ جدّاً أن يتناسى الناسُ جميعاً ، وهم يُواجهون الخطرَ المغوليّ المُحدق ، مُحرّكاتِهم السلوكيّةَ التقليديّةَ . وأن تسقطَ عواملُ الفرز العريقة المكينة . وتمنحَ ساحتَها خالصةً لفرزٍ سياسيٍّ جديد . فيصطفُّ حنابلتُها وراء فقيهٍ شيعيّ . ويصطفُّ شيعتُها وشيعةُ جوارِها وراء رجلٍ حنبليّ. بل القاعدةُ هي العكس. أي أن يحملَ الفرزُ السياسيُّ الآن عواملَ الفرزِ التقليديّة . ويكونَ تعبيراً جديداً عنها . خصوصاً وأنّنا عرفنا قبل قليل ، أنّ العددَ الذي استجاب لابن ملّي في حركته الجهاديّة ، وشاركَ في قتال المغول ، كان "عشرة آلاف نفر" . هؤلاء لا يُمكن أن يكونوا جميعاً من أهل المدينة . لأنّه يفوقُ بكثير ما نتصوّره من عديدِ سُكّانِها في ذلك الأوان . فلا بُدّ من أن يكونوا منها ومن سُكّان القُرى والمزارعِ المُطيفة بها . وقد كانوا جميعاً آنذاك من الشيعة دون ريب .

(٤) الدلالة التاريخيّة في سيرة البطلَين

هكذا يُمكنُ القولُ بكامل الثقة ، أنّ الشيخَ الرّائدَ ابنَ معقل الحمصي قد نجحَ نجاحاً باهراً في نقل شيعة "بعلبك" إلى موقعٍ اجتماعيٍّ مُتقدّمٍ بالقياس إلى ما كانوا عليه من قبلِه .

لسنا نعرفُ بالتحديد كيف ولا ماذا فعل بالضبط . ولعلّ الأمرَ لم يتعدَّ أنّه بما كان له من مكانةٍ عند أميرها المُستنير، وبما كان له من حضورٍ معنويّ في المدينة مُستندٍ إلى مكانته العلميّة والأدبيّة ، قد أكسبهم نوعاً من القبول والاعتراف الاجتماعي . ولم يعودوا مُجرّدَ أفرادٍ طارئين من خارج المدينة على بُنيتِها ذات اللون المذهبيّ الواحد .

وهكذا أيضاً يُمكنُ القولُ ، أنّ ابن ملّي ببادرته القياديّة الشُّجاعة والفريدة ، وباستجابة قسمٍ من أهلها ، كلّهم أو جُلّهم من الشيعة ، قد نقلهم إلى موقعٍ مُتقدّمٍ ، بالقياس إلى حيث وضَعَهُم من قبلُ شيخُهُ ابنُ معقل . فهو بوضْعهم على طريق الجهاد ، وما اقتضاه من تعبئةٍ وضبْطٍ وإعدادٍ وعمل ، بالإضافة إلى ما تظاهر به من تمايُزٍ في الموقف السياسي وفي القيادة ، . قد حقّقَ نقلةً نوعيّةً كبيرةً ، تختلف كثيراً عن الوضع الخامد المُتلقّي الذي كانوا فيه .

هوذا ابنُ ملّي قد نجح في تنظيم الشيعة في "بعلبك" ونطاقِها ، لأول مرّة في تاريخهم المحلّي . وهو إنجازٌ كبير بالقياس

إلى ما كانوا عليه من قبل . ومن هذه النقطة انطلقوا باتجاه بناء كيانٍ سياسيٍّ محلّيٍّ (إمارة) . ظلّ حيّاً فاعلاً حتى الأمس القريب .

—

الفصل السابع

—

تطوُرُ الأحوال بطرابلس ونطاقها

(١) مراجعةٌ نقديّة لِما هو مُتداوَل من تاريخ طرابلس

خلافاً لتاريخ "بعلبك" ونطاقِها ، فإنّ تاريخَ "طرابلس" وبعض ما والاها حظي ويحظى بشيءٍ من عناية المؤرّخين قديماً وحديثاً . لِما لهذه المدينة من موقعٍ جغرافيٍّ ممتازعلى الساحل الشامي الغربي الفائق الأهميّة لأكثرِ من اعتبار. ثم لِما لها أيضاً من موقعٍ سياسيٍّ حَرِجٍ ، جعل منها نقطةَ مُتوسّطة بين الأقطاب ، تتجاذبُها القوى المُسيطرة على "مصر" من جهة ، وعلى وسطِ وشمالِ "الشام" من جهةٍ أُخرى .

لكن تلك المِيزة ، أعني عنايةَ المؤرّخين بها وبتاريخِها ، ليست كلُّها ممّا يبعثُ على السّرورَ والرضى دائماً لدى المؤرّخ الذي يعملُ على تركيب تاريخَها اليوم . لأنّ بعضَ الأوهام المُربِكة قد تدخلُ أحياناً من بابِ العناية غيرِ السّديدة . الأمرُ الذي يُرتّبُ على الباحثِ اليوم مُهمّةً إضافيّة . هي أشبه بتطهيرِ الأرضِ من الأعشابِ الضّارّة قبل زرعِها . سيكونُ مُتحرّراً منها لو انّه كان يعملُ على تاريخٍ خامٍّ . يأخذُ مادّتَه ومُنطلقاتِهِ من

الثّوابت المؤكّدة . ويعملُ على تركيبِها وتفسيرها ممّا هو في موضوع بحثه من عواملَ ذاتيّة . خلافاً للمؤرّخين الرّسميين ، الذين يبحثون دائماً عن تفسيرٍ سُلطويٍّ لكلّ إشكاليّةٍ يدرسونَها . وكأن السُلطةَ وأهلَها وأعمالَهم هم العاملُ التاريخيّ الوحيد ، لا ثانيَ له في ذلك ولا شريك .

من ذلك ، مثلاً ، تفسيرُ انتشارالتشيّع بين أهلِ "طرابلس" في ذلك الأوان حتى الصليبيين ، بأنّها كانت في وقتٍ ما من ماضيها تضمُّ عناصرَ سُكّانيةٍ فارسيّة ، ممّن عرفنا أنّهم كان يُجلَبُون لخفارتِها وعِمارتِها . يزعمون أنّ هؤلاء هم أساسُ وُجودِ الشيعة فيها. وهو تفسيرٌ يتردّدُ كثيراً حتى لدى بعض أهل الاختصاص البارزين . ولكنّ هذا التفسيرعند العارفِ كلامُ مَن لا يعرفُ شيئاً لا عن تاريخ التشيّع الإمامي وانتشاره شرقاً وغرباً ، ولا عن هُويّة تلك العناصر الفارسيّة ، التي لم تكُن "فارسيّةً" عند التدقيق ، بل هم عربٌ قدموا من الخليج الفارسي. بشهادة ما وصلنا من أسماءِ بعضِهم. فهم "فُرسٌ" بهذا المعنى ، أي نسبةً إلى الخليج الفارسي ، وليس إلى بلاد "فارس". ثم كأنّ قائلَ هذا التفسير ينطلقُ من فكرةٍ إسقاطيّةٍ من الحاضرِ باتجاه الماضي ، هي أنّ الفُرس كانوا دائماً شيعة . وهذا تصوّرٌ بالغُ السّذاجة . يقولُ ما هو عكسُ الحقيقة تماماً . ولسنا نبتغي الآنَ أن نخوضَ في هذا الشأن بأكثر من هذه الإشارة .

ومن ذلك أيضاً تفسيرُ الإشكاليّةِ نفسِها بتأثيرٍ مزعومٍ لفاطميي "مصر" ، إبان الفترةِ القصيرةِ التي حكموا فيها "طرابلس" . مع أنّ هؤلاء كانوا شيعةً إسماعيليين وليسوا إماميين كشيعة "طرابلس" . ومع أنّهم (الفاطميين) كانوا في صِدامٍ فكريٍّ مع الشيعة الإماميّة في أقطار "الشام" ، صِداماً كان يصِلُ أحياناً إلى حدِّ البطشِ والقتل لسببٍ فكريّ عقيديٍّ . فضلاً عن أنّ مذهبهم باطني ، من قوامِهِ الكتمانُ وثقافةُ السّرّ ، وما كان يوماً دعوةً تبشيريّةً . بدليل أنّهم لم ينشروا مذهبهَم في "مصر" التي حكموها أمداً طويلا .

ومن ذلك أيضاً وأيضاً أنّ أحد المُستعربين/المُستشرقين عالجَ الإشكاليّةَ نفسَها بالقول أن سياسةَ أُمراءِ "طرابلس" من بني عمّار هي التي فرضتْ التشيّع فرضاً على الناس في منطقة حكمهم . وهذا كلامٌ ارتجاليٌّ تافه . مغزاهُ الوحيدُ أنّ قائله لا يعرف شيئاً عن "طرابلس" ولا عن أُمرائِها المُستنيرين بني عمّار، وما ساسوا به الناس طوال فترة حكمهم، ممّا سنقفُ عليه بعد قليل .

أضِفّ إلى ذلك كلّه أنّ انتشارَ التشيّع في أقطار "الشام" ، بحيث أنّه كان في يومٍ من الأيام الصِّبغةَ الغالبةَ على أهله ، هو إشكاليّةٌ واحدةٌ ، ينبغي أن تُدرسَ بهذه الصّفة ، وانطلاقاً من الثوابت القائمة في حقل دراستها .

(٢) تطوّرالأحوال بطرابلس

مهما يكُنْ ، فنحن قد غادرنا الكلامَ على "طرابلس" ونطاقِها ، في خواتيم الفصل السابق ، ومعنا صورةٌ سُكّانيّةٌ خلاصتُها :

. جاليةٌ همّدانيّةٌ كبيرةٌ في "جبل الظّنّيين" .

. جاليةٌ من ربيعة أصغرُ منها في "عِرقة" .

. مدينة "طرابلس" قائمةٌ سالمةٌ ببُنيتِها المادّيّة ، ولكنّها خاليةٌ من السُكّان المدنيين ، بسبب الخشيةِ من الغاراتِ الرُّوميّة البحريّة المُفاجئة .

وبُغيتُنا الآن أن نُتابعَ تطوّرَ أحوالِها .

والظاهرُ أنّ هذه الصورة ثبتتْ أمداً طويلاً فيما بعد . وأنّ "طرابلس" خصوصاً بقيت أسيرةَ وضعِها الأمنيّ المُضطرب الذي أعاقَ النُموَّ المَدَنيّ الذي تستحقّه . في حين أنّ جارتيها "بيروت" و "صور" كانتا أفضلَ حالاً منها بقليل . بشهادةِ أنّنا نرى بين رجال الحديث من القرن الثاني للهجرة /الثامن للميلاد بعضَ مَن هو منسوبٌ إليهما ، خلافاً لـ "طرابلس". ويبدو أنّ قُربَ هذه من الموانئ الرّوميّة هو الذي جعلَ منها هدفاً سهلَ المنال بالقياس إلى ما هو أبعد منها على الساحل . يؤيّدُ ذلك أنّ "اللاذقية" ، الأقربُ منها إلى الموانئ الرّوميّة ، لقيتْ الأمرّين من غاراتهم . إلى حدّ أنّهم أحرقوها ، وبقيت لزمنٍ مهجورة ، بحيث سُمّيت لفترةٍ "اللاذقيّة المُحترَقة" .

(٣) نمو طرابلس وارتباطُهُ بنموّ

البحريّة الإسلاميّة

هكذا ارتبط مصيرُ مدينة "طرابلس" في الآتي بنموّ القوّة البحريّة الإسلاميّة ، بنحوٍ ينتزعُ من الروم السيطرةَ المُطلقةَ على البحر. الأمرُ الذي لم يحصلْ على نحوٍ مُجدٍ ومؤثّرٍ ، بحيث ارتفعتْ السّيطرةُ الروميّةُ المُطلَقَةُ على البحر، إلا على عهد الطولونيين في "مصر"(٢٥٤ . ٢٩٢هـ/٨٦٨. ٩٠٤م) .

في السنة ٢٦٤هـ / ٨٧٧م استولى أحمد بن طولون على "الشام" ، فأولى موانئَه عنايةً خاصّةً ، فرمّمها وحصّنها وشحنها بالسُّفُن المُخصّصة للقتال والمقاتلين . وفي عهدهم زار الجغرافي ابن واضح اليعقوبي(ح:٢٩٢هـ/٩٠٤م) المدينةَ ، ووصفها ذلك الوصف البائس : "**أهلُها قومٌ من الفُرس ، كان معاويةُ ابن أبي سُفيان نقلهُم إليها**" . الذي نفهمُ منه أنّ المدينة يوم زارها كانت على حالها نفسِه أثناءَ القرنيَن الماضييَن ولم تكُن قد بدأت الاستفادةَ من التوازن الجديد لصالحِ المسلمين في القُوى البحريّة . وذلك أمرٌ مفهومٌ . ضرورةَ أنّ استيعابَ الجمهور لمُتغيّرٍ استراتيجيّ بهذا الحجم ، وتكييفِ شؤونِهم بمقتضاه ، لا بُدّ له من وقتٍ كافٍ .

إنّ أهميّةَ وصف اليعقوبي للوضع السُّكّاني لـ "طرابلس" تظهرُ لنا حين نُقارنُه بما وصفها به الرحّالةُ والشاعرُ الإيراني ناصر خسرو القُبادياني ، بعد زُهاء القرن ونصف .

بتاريخ ٥ شعبان ٤٣٨هـ / ٦ شباط ، فبراير ١٠٤٧ م زار القُبادِيانيُّ المدينة ، ووصفها وصفاً بديعاً ، يجمعُ بين العظَمةِ والجمال : مدينةٌ عامرةٌ كبيرةِ مُزدهرةٌ حصينةٌ ، مُستكملة البُنيان بسورِها المتين ومساكنِها ومساجدِها وأسواقِها الجميلة ومصانِعها الرائدة وميناها الفريد في مواصفاته . تستقرُّ وسطَ مُزدرَعٍ مَرويٍّ خصيب .

يختمُ القُبادياني ملاحظاتِهِ على "طرابلس" بالقول :"وسُكّانُ طرابلس كلُّهم شيعة" . ثم يُمضي ما بقي من نصّه الجميل بوصفِ المعالم العُمرانيّة الشيعيّة من مساجد ومشاهد .

والحقيقةُ أنّ هذا الوصفُ "**كلّهم شيعة**" لا يُضيفُ جديداً إلى ما نعرفه نحنُ عنها بنحوٍ أوفى . إن لم نقُل أنّه يُضلّلُ القارئَ غيرَ العارف . ذلك أنّ من المؤكّد أن سُكّانَها لم يكونوا "**كلّهم شيعة**" . بل كان فيهم أقلّيّةٌ من مذاهبَ أُخرى ، وخصوصاً من المالكيّة . ومع ذلك فإنّنا نفهمُ سببَ هذه المُبالغة . فالرجلُ في النهاية زائرٌ عابرٌ، استفادَ مُعلوماتِه من أبرزِ ما يراهُ المُتسكّعُ الغريب دون جُهد . ولم يُتَحْ له أن ينفُذَ إلى أعماقِ البُنية الإنسانيّة للمدينة.

أمرٌ آخرُ يتصلُ بهذه المُلاحظة . هو أنّ القُبادياني ، للسبب نفسه ، لم يُتحْ له أن يعرفَ شيئاً عن الحالة الفكريّة / الثقافيّة الجديدة والرائعة التي كانت عالقةً آنذاك في "طرابلس". مع

أنّها كانت قد بدأتْ بالفعل فيها ، بل وكانت ظاهرةً بارزةً على مستوى المنطقة بأكملها ، بفضل ابنِها العظيم محمد بن علي بن عثمان الكراجكي (ت:٤٤٩هـ /١٠٥٧م) ، الذي كان آنذاك فيها بعد أن أمضى سنواتٍ مُتنقّلاً في مختلف ربوع "مصر" و "فلسطين" . مُثيراً حولَه حيثما حلّ حِراكاً فكريّاً غير مسبوق . ومن قبلِ ذلك ارتادَ الصّلةَ مع المراكز العلميّة العظيمة في "العراق" . وبهذه البادرةِ المُذهلة أسّسَ لِما سيكونُ له فيما بعد أبعدّ الأثر في الحياة العقليّة للمنطقةِ إجمالاً ، ما تزالُ آثاره تتداحُ حتى اليوم . وستبقى إن شاء الله .

مهما يكُنْ ، فإنّ المغزى الأساسي للمقارنة بين وصفي اليعقوبي والقُبادياني لـ "طرابلس" ، هو أنّ المدينةَ قد تحوّلتْ من حالٍ إلى غيره في مدّة زُهاء قرنٍ ونصف القرن من الزمان . نمَتْ أثناءَها سُكّانيّاً وعُمرانيّاً وإنتاجيّاً . من ثغرٍ مَخوفٍ ، يخفرُهُ مُرابطون مؤقّتون مجلوبون ، إلى مدينةٍ غنيّةٍ تضجُّ بالحيويّةِ والنشاط . وإنّنا حين ننقلُ بصرَنا بين الوصفيَن نكادُ نرى المدينةَ وهي تنمو .

(٤) كيف حصل النموُّ السُكاني والتطوّر العمراني لطرابلس؟

نحن الذين أصبحنا الآن نملكُ فكرةً طيّبةً عن الصُّورة السُّكّانيّة التي كانت تستقرُّ في قلبها "طرابلس" قبل نهضتها العظيمة والرائدة ، لا ننتظرُ نصّاً نعرفُ سلفاً أنّه لن يأتي ، من مؤرّخٍ يقولُ لنا كيف ولماذا حدثَ ذلك التطوّر العمراني الفائق والمُتعدّد الوجوه . كما أنّنا في الوقت نفسه ، لسنا بحاجةٍ أبداً إلى كبيرِ تامُّلٍ لنقولَ نحن ، دون استمزاج أحد ، كيف حصلتْ هذه الطّفرةُ التي تُشبهُ المُعجزة بمقاييس التطوّر السُّكّاني . الاجتماعي . التنموي .

ما من ريبٍ في أنّ ذلك التطوّر السريع قد حصلَ نتيجةَ دفقٍ سُكانيّ انصبّ على "طرابلس" من خارجِها . وليس نتيجةَ تكاثُرٍ سُكانيٍّ طبيعيّ مهما يكن مؤاتياً . لأنّ ما حصلَ يفوقُ بكثيرٍ جدّاً مُعدّلاتِ التكاثُرِ الطبيعي يومذاك . وعلى كلّ حال فنحن نعرفُ أنّ المدينةَ كانت من قبلُ خاليةً إلا من خُفرائها الأغراب الذين كانوا يستقرّون فيها بمقدار الضرورة . أي طالما كانت حالُ البحر تسمحُ بحصولِ غاراتٍ من الروم على المدينة . وهذا النمط من السُّكنى المؤقّتة لا يمكن أن يؤدّي إلى تكاثُرٍ ملحوظ . وهذا واضح

ضمنَ هذا التصوّر ، فإنّه ليس في البين إلا المهاجرون من الهمدانيين قاطنوا "جبال الظّنّيين" وجيرانُهم بنو ربيعة قاطنوا مدينة "عِرْقة". ذلك أنّ هؤلاء لا بُدّ أنّهم قد تكاثروا أثناء القرنين

الماضيينَ إلى أضعاف عديدهم يوم نزولهم مهاجرين قادمين من "العراق" .

هكذا ، فإنّ ممّا هو بغنيّ عن الدليل والبرهان ، أنّه بمُجرّد زوال المانع الذي كان يحولُ بين أُولئك وبين إعمار المدينة الكبيرة المُجاورة ، التي كانت ما تزالُ بحالٍ مقبولة من حيث العمران المادّيّ ، حتى طفقوا يتدفّقون عليها .

هذا يُفسّرُ لنا نموَّها العجيب في الزمن القصير. كما أنه يُفسّر وُجودَ الأكثريّة الشيعيّة الكُبرى بين سُكّانِها .

إذن فعندَ هذا التصوّر المنطقي يتقاطعُ تفسيرُ إشكاليّتيَن تاريخيّتيَن أساسيتيَن في تاريخ المدينة . لم يلحظْ المؤرّخون أُولاهُما ، أعني العلاقةَ السُّكّانيّة بين جاليتَي ربيعة وهمْدان وبين نمو "طرابلس" ، وحاروا وماروا في تفسير الثانية ، أي غلبة التشيُع على أهلِها . تفسيراً ينسجمُ مع طبيعة الأُمور ، ومع حوافز السلوك عند البشر وهم يسعون في مناكبِها . بل إنّه سيكونُ من المُستغرَب جدّاً أن لا يكترثَ أُولئك الساكنون في الأعالي والجوار بالمدينة المُجاورة العطشى لمَن يسكنُها ، وما تُوفّرهُ من عيشٍ رغيد لساكنيها، بموقعِها المُمتاز، وبما في أرباضِها من أرضٍ خصبة ، وبما يُقدّمه ميناؤها الواسع من فُرصٍ تفوقُ الحصر .

هذا التقاطُعُ من أقوى الأدلّة التاريخيّة . بل هو أقواها على الإطلاق .

إذن ، في هذا الإطارالتاريخي حصلَ المُتغيّر السُّكّاني الشامل ، الذي كان من أهمّ آثاره أن هيّأ الأساسَ والقاعدةَ لنهوض "طرابلس" نهوضاً شاملاً سياسيّاً وعُمرانيّاً وثقافيّاً . هي أوّلُ نهضةٍ من نوعها عرفها تاريخُ "لبنان" في الإسلام .

—

الفصل الثامن

—

طرابلس ، النّهضةُ الأُولى في لبنان

تمهيد

شكّلَ ازدهارُ "طرابلس" المُتكامِلُ كما سنعرفُهُ على التوّ، نهضةً غيرَ مسبوقةٍ على مستوى العالَم الإسلاميّ ، في أكثرِ عناصرها . وأخصُّ بالذّكر من ذلك تكامُلَها ، بحيث أنّها كانت نهضةً شاملةً لكلّ ما هو أصيلٌ وقياسيٌّ في حياة البشر وما يوزَنُ به تقدُّمُهم أو تخلُّفهُم .

تلك كانت نهضةً معنويّةً . مادّيّةً مُتكاملةً . نهضةً معنويّةً في نظامها السياسي ، وفي الحالة الفكريّة . الثقافيّة المُتقدّمة . ونهضةً مادّيّةً في عُمرانِها ، وفي نمط التنميّة والانتاج المُتقدّم وما قادَ إليه من رفاهٍ وغنى . وأيضاً فيما قام فيها من مؤسّساتٍ وإنجازاتٍ مدنيّةٍ وعسكريّة .

وإنّنا لنؤكّدُ تأكيداً خاصّاً على نظامِها السياسيّ ، المُدهش في تقدّميّته بالقياس إلى عصره وإلى مفاهيم الشّرعيّةِ البائسة التي كانت سّائدةً فيه . إمّا بقوّةِ الثقافة الاسُلطويّة . وإمّا مفرضةٌ بالقوّة والغلَبَة . ثم خصوصاً على أنّ رفاهَها وغناها قاما على قاعدةٍ من إنتاجِها الذّاتي الزّراعي الصناعي والتجاري . ولم يكن رفاهاً خَرَاجيّاً

طُفيليّاً مُستعاراً بالقوّة والقهر ، قائماً على تدفّق الخراج إلى المدينة من خارج مداها الحيوي الإنتاجي ، والبعيد غالباً ، مثلما كان شأنُ كلّ المُدُن الإسلاميّة العظيمة .

وإنّني أحُسُّ هنا ، حِسَّ المؤرّخ، بروح همْدانَ الحضرميّة . تلك الإنجازاتُ الخارقةُ ذات الوجوه هي سرُّ شعبٍ تمرَس من قبلُ بالحِضارة . وليست فقط إبداعاتُ قيادةٍ ، مهما تكُن حكيمةً وعادلة وحازمةً وصاحبةَ رُؤية (وكلُّ هذه من شروط قيام أي نهضةٍ حقيقيّة). ومعلومٌ أنّ همْدانَ اليمانيّة قادمةٌ من بلد حِضارةٍ. حيث سيكونُ من المُتوقّعِ والمفهومِ أن تحملَ سرّها معها ، لتزرعَها وتنمو حيث تحِلّ ويستقرُّ بها المقام ويطيب .

مهما يكُن، فإنّ ازدهارَ "طرابلس" ونهوضَها يتكّئُ، أولاً ، على موقعها ، بين مُزدرَعٍ خصيب و"**ميناءٍ عجيب**" (هذا الوصف الأخير للبُلداني لليعقوبي) . ويتكّئُ ، ثانياً، على مُبادراتِ عددٍ من رجالِها الأفذاذ في السياسة والثقافة . ومنها ، بل على رأسِها ، سعيُهم الناجح لاكتساب الاستقلال والحريّة . وسعيُهم الناجح أيضاً للتسامي بالثقافة الذّاتيّة لأهلها .

لكن يجب أن نؤكّدَ أن كلّ هذه الشروط ، بل وما هو أكبرُ منها بكثير، يمكنُ أن يكونَ غير ذي معنى ، في غياب الإنسان الذي يُحسنُ توظيفَها والعملَ عليها فيما يأولُ إلى تقدّمٍ اجتماعيٍّ شامل . وأنا أعني هنا الإنسانَ العادي ، الذي يضطربُ في شؤون

الحياة مُنتجاً ومُبدعاً وبانياً . وبذلك يستحقُّ عندنا صفةَ الصّانع الحقيقيّ للتاريخ .

إنّ القيمةَ الإضافيّة لهذه النهضة ، خصوصاً بالنسبةِ لمن يكتبُ التاريخَ الإنسانيَّ الحقيقي لوطننا ، هي أنّها أوّلَ نهضةٍ كبرى شهدها . حقٌّ أنّها قُصِمتْ وهي في أوجها بالبلاء الصليبي كما سنعرف . وبذلك ضاعتْ إنجازاتُها وغدتْ من الماضي . ولكنّنا سنعرفُ أيضاً أنّ سابقةَ "طرابلس" وجدتْ مَن يبني عليها فيما بعد ويُعلي البناء . ثم لتلِدَ نهضتُها نهضاتٍ ، بدّلتْ وجه الدنيا من حولِها وما تزال.

هنا يصحُّ في الاجتماعِ البشري ما يصحُّ ، فيما يُقالُ ، في قوانين المادّة : لا شئ يبقى ، لا شئ يفنى .

* * *

هوذا تمهيدٌ لا أبتغي منه إلا تهيئةَ القارئ للخروج من أوهام التاريخ السُلطوي . وسيكونُ علينا فيما بقي من هذا الفصل أن نُفصّلَ الكلامَ على وُجوه نهضة "طرابلس" العظيمة في السياسة والنظام السياسي ، وفي التنمية والانتاج ، وفي الفكر والثقافة . مع التأكيد على مُساهمة كلٍّ من هذه الوجوه في صناعة النهضة . ومع التنويه أيضاً على ما بين هذه العناصر الثلاثة من تَرتُّبٍ . فالشأنُ السياسيُّ الرشيدُ شرطٌ من شروط قيام حالةٍ تنمويةٍ ناجحة ،

مهما تكُنْ أسبابُها الموضوعيّة متوفّرة . وكذلك فإن هذه شرطٌ بدورِها لقيامِ حياةٍ عقليّةٍ مُتقدّمة . لأن الناس عادةً إنّما يولون الأمورَ المعنويّةَ من فكرٍ وأدبٍ وفنٍّ ما تستحقُّهُ من العناية ، بعد أن يرتاحوا ويطمئنوا إلى ما هم فيه لجهة وُفور حاجاتهم الأساسيّة .

—

أ . في السياسة

(١) طرابلس تبنى استقلالَها السياسي

ما أن غدت "طرابلس" على حدٍ من العُمران ، حتى أصبحت جزءاً من اللُّعبةِ السياسيّةِ للكبارِ من حولِها . فتارةً تابعةٌ للوالي العبّاسي على "دمشق" ، وتارةً لوالٍ على نحو الاستقلال بالولاية عليها، تابعٍ لـ "بغداد" العبّاسيّة أو لـ "القاهرة" الفاطميّة . والمؤرّخون الرّسميّون يُمعنون في البحثِ والتنقيبِ عن أسماءِ هؤلاء الوُلاة . ولكنّ هذا أمرٌ ثانويٌّ جدّاً عند المؤرّخ الإنساني. لأن هؤلاء الوُلاة ليسوا في حقيقة الأمر إلا جُباةً لأسيادهم . الذين إنّما يستولون على بلدٍ ويحفظونه كوجهٍ من وجوه استثمارِ الفائضِ من القُوّةِ العسكريّة التي تحت أيديهم ، ابتغاءَ جبايةِ أموالِ خَراجِه والتّمتّع بإنفاقها على ملاذِّهِم . لذلك نقول إن الأمرَ في معرفة هؤلاء وعدمِه عندنا سيّان. ولا يستحقُّ عندنا الوُقوفَ عليه إلا بمقدار تلك الإشارة . أو حيثما تكونُ له نمطُ خصوصيّةٍ دَلاليّةٍ تُدخلُهُ في سياق منهجنا . كما سنرى مثالَهُ بعد قليل .

من ذلك أنّ الخليفة الفاطمي جعل قاضياً على المدينةِ مَن اسمُهُ علي بن عبد الواحد بن حيدرة والياً على "طرابلس" ، ومنحه صلاحيّاتٍ واسعة . بحيث يقودُ العسكر ، ويُبرم الاتفاقات مع حُكّام المُدُن والحصون المُجاورة ، ويبسطُ نفوذاً تامّاً على مُدُن الساحل .

ثم خلفَه من بعده ابنُهُ حسين . وإنّا وإن كُنّا لا نعرفُ ما يُذكَر عن هذا الوالي القاضي ، فمن قائلٍ أنّه كُتامي ، أي من المغاربة البربر الذين جاؤا مع المُعزّ الفاطمي من "إفريقيا" . ومن قائل أنّه همْداني ، أي من سُلالة المهاجرين الذين شكّلوا أكثريّة أهل "طرابلس" ، بعد أن هبطوا من "جبال الظّنّيين" . ، فإنّ تعيينَ قاضييَن بتلك الصلاحيّات الواسعة غير المسبوقة في هذا المنصب ، أسّسَ لتقليدٍ سلكَ سبيلَه بنو عمّار فيما بعد ، ليصِلوا عبْرَهُ إلى الإمارة . ولكن من المؤكّد أنّه كان بين قُضاة "طرابلس" اثنان همْدانيّان شيعيّان هما مَن اسماهما عُبيد الله وابنه علي .

في هذا السّياق الذي سيؤدّي إلى استقلال "طرابلس" على يد بني عمّار، نذكرُ أيضاً ولايةَ ناصر الدولة حسين بن حسن بن حمْدان على المدينة . وهو من سُلالة الحمْدانيين أُمراءِ "حلب" . وذلك بوصفه أوّلَ والٍ شيعيٍّ إماميٍّ مؤكّد . ممّا يُشير إلى بدايةِ اعترافِ الفاطميين عمليّاً بهُويّةِ المدينة ، وبضرورة التّماهي السياسي مع هذه الهُويّة ، بتعيين والٍ عليها من المذهب الغالب على أهلِها ، وفقاً لمُقتضيات الدّهاء السياسي وفنّ الحُكم .

(٢) الاستقلال شرطاً من شروط النهضة

ودور بني عمار

إنّ استقلالَ "طرابلس"، وقد عرفنا ممّا سبقَ أنّه كان من

شروط نهوضِها، يرتبطُ بأُسرة بني عمّار الطّائيّة . التي حكمتْ المدينةَ زُهاءَ نصف قرن. ولم تسقط من التاريخ إلا بسببِ الاحتلالِ الصليبيّ للمدينة ، بعد أن ضربوا في الدّفاعِ عنها أروعَ الأمثال. ولكنّهم أثناءَ فترة حُكمهم المجيدة ، على قِصَرِها ، أتوا من جلائلِ الأعمالِ ما أدخلهم وأدخلَ مدينتَهم التاريخَ من أوسعِ أبوابِه. والمؤرّخون يُجمعون على وصفِ أُمرائها بكلِّ جميل ، بعلمهم وعدلِهم وسَدادهم وكياستِهم وعفّتهم عن الدّماءِ والأموال وبُعد نظرهم وجهادِهم . ممّا لانجِدُ له نظيراً في كلِّ مَن نعرفهم من الأُسْرات الحاكمة .

والحقيقةُ أنّ ستاراً مُحكَماً من الغموض يُحيطُ بأصل هذه الأُسرة الجليلة . وذلك أمرٌ غير غريبٍ بالنسبة لأُسرةٍ مثلِها ، برزتْ بنفسِها من غُمار الناس ، بفضل كفاءَةِ أبنائِها ، عن غير سابقةٍ في السُلطة . يؤيّدُ ذلك أنّ نسبَها ينتهي عند من اسمُهُ (عمّار) ، هكذا مُجرّداً حتى عن ذكرِ اسمِ أبيه . وفي هذا دليلٌ على أنّه لم يكُن شيئاً مذكورا . وهو الذي منحَ الأُسرةَ اسمَها الذي دخلتْ به التاريخ ، والجدُّ الأوّلُ لأوّلِ أُمرائِها أبي طالب أمين الدولة عبد الله بن محمد بن عمّار.

ومن آثارِ ذلك الغموض ، أنّ اسمَ مؤسّس الأُسرةِ في الحُكم، على ما في أكثرِ المصادرهو (حسن). وذلك خطأٌ بالتأكيد . يدلُّ على ذلك أنّ الفقيهَ الطرابلسيَّ الجليلَ محمد بن علي بن عثمان

الكراجكي ، الذي من الثابت أنّه عرفَ الأميرَ معرفةً شخصيّةً متينةً ومديدة ، سمّاهُ (عبدالله) في فاتحة كتابه الذي صنّفه بناءً على طلبه ، وسمّاه (البستان) أو (بستان الكرام) . وبذلك الاسم سمّاه أيضاً المؤرّخُ الشاميُّ . المصريُّ المقريزي . وفي ذلك ، وفي غيره ممّا لم نذكره ، دليلٌ قاطِعٌ على صحّة هذا الذي ذهبنا إليه .

(٣) مراجعةٌ نقديّة لهفوات المؤرخين
عن بني عمّار

ولكنّ أفدحَ آثارِ ذلك الغموض ، هو ما تذهبُ إليه عامّةُ المصادر المعنيّة بتاريخ "طرابلس" ، أنّ أُمراءَها بني عمّار هم من المغاربة الكتاميين البربر، الذين قدموا من "إفريقيا" مع المُعزّ الفاطمي . القبيلةَ الكبيرة التي كوّنت الارستقراطيّةَ العسكريّةَ . السياسيّةَ في الدولة الفاطميّة بالمشرق .

منشأُ هذا الخطأ الفادح ، فيما نحسبُ ، أنّه يوجدُ بالفعل من سادة بني كتامة في "مصر" أسرةٌ تحملُ الاسمَ نفسَه . ومنهم مَن توالوا شغلَ مناصبَ عاليةً سياسيّةً وعسكريّةً فيها . فما أن رأى أحدُ المؤرّخين الاسمَ نفسَه علماً على الأُسرة التي حكمتْ "طرابلس" على عهد الفاطميين ، حتى قالَ دون تمحيص أنّ هذه الأُسرة الطرابلسيّة من تلك . وتناقلَ النُّسّاخُ أشباهُ المؤرّخين من بعده وحتى زماننا هذه الفتوى الاعتباطيّة دون تدقيقٍ أو توثيق أو إعمالِ نظر.

والذي نظنّهُ ، بل ونذهبُ إليه ، أنّ ذلك يتنافى مع كلِّ ما نعرفهُ عن بني عمّار الطرابلسيين وسيرتِهم وهُويّتِهم وأعمالِهم ، وأيضاً عن كلِّ ما نعرفه عن بني عمّار الكتاميين ، بدليل :

. أولاً : إنّ بني عمّار الطرابلسيين اكتسبوا اسمَهم من اسم الجدِّ المُباشِرلأوّل أُمرائهم المُسمّى (عمّار) ، كما هو ثابت. امّا بنو عمّار الكتاميّون فيدلُّ عديدُهُم الوافر في "مصر" على أنّهم ينتسبون إلى عمّارٍ غيره ، هو ولا ريب أعرقُ بكثيرٍ من سميّهِ جدُّ الطرابلسيين .

. ثانياً : أنّهم كانوا شيعةً إماميّةً بالتأكيد . بل إنّ أوائلَهم في "طرابلس" على الأقل كانوا عُلماءَ فقهاء . كما أنّهم أولوا العلمَ اهتماماً خاصّاً ، ورعوا أهلَهُ رعايةً ممتازة .

أمّا بنو عمّار الكتاميّون فقد كانوا سادةً قبَليين من البربر ومن رجال الحرب والسيف . لم يُعرف عنهم أدنى اهتمامٍ بالعلم وأهله . وذلك أمرٌ طبيعي بالنظر لأُصولهم ولُغتهم البربريّة . كما كانوا من أتباع المذهب الرسمي للدولة ، أي شيعةً إسماعيليين .

لكلِّ ذلك ، وأيضاً لغيره ممّا لم نذكرهُ استغناءً بما قلناه ، فإنّنا نقول ، إن بني عمّار أُمراءَ "طرابلس" هم عربٌ أقحاح ، وبالتحديد من بني طيّ . مُستندين فيما ذهبنا إليه إلى المؤرّخ المقريزي ، حيث ساق نسبَ كبيرِ الأُسرةِ ومؤسّسِ سُلطانِها أمين الدولة أبي طالب هكذا :

" **عبد الله بن محمد بن عمّار بن الحسين بن قندس بن عبد الله بن إدريس بن أبي يوسف الطائي** "

والمقريزيُّ مؤرّخٌ خبيرٌ ذو مِراس . وُلد في "بعلبك" ولكنّه عاشَ وصنّفَ في "مصر" . وعرفها وعرفَ أهلَها معرفةً ممتازةً . وكتبَ في تاريخِها وناسِها وخِططِها كُتُباً معروفةً مُتداولَةً مُعتمدَةً حتى اليوم . فلو انّ القومَ كانوا كتاميين ، كما زعمَ الزّاعمون ، لمَا خفيَ عليه هذا الأمر ، ولَما ساقَ هذا النسب المُفصّل ، الذي يشهدُ على اطّلاعٍ واسعٍ أصيل .

(٤) القاعدةُ التي حملت أُسرة
بني عمّار إلى السُلطة

بدأ صعودُ أُسرةِ بني عمّارالطّائيّةَ ، إلى أن وصلتْ إلى ما وصلتْ إليه ، انطلاقاً من موقعِ زعامةٍ محلّيّةٍ . فأبو طالب عبدُ الله ، أوّلُ أُمرائِها، كان قاضياً في "طرابلس" . ومن هنا خاطبه عالِمُ المدينةِ الجليلُ الكراجكي في أحد كُتُبه هكذا : "**القاضي الجليل أبي طالب عبد الله بن محمد بن عمّار**" . ولم يذكرهُ بلقبهِ الرّسميّ الذي اكتسبه بالإمارة بعدُ : (أمين الدولة) . ذلك لأنّ الكراجكي توفي سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م، وإعلانُ القاضي استقلالَ المدينة بإمارته ، وبالتالي اكتسابَه لقبَ الإمارةِ لم يتمّ إلا في السنة ٤٥٩هـ/١٠٦٧م على الأقلّ . أي بعد وفاة الكراجكي بعشر سنوات .

لكنّ أبا طالب كان ، حتى قبل وُصوله إلى سُدّةِ الإمارة ، من الشخصيّاتِ البارزة جدّاً في المنطقة الشاميّة عموماً ، وليس في مدينته حسبُ . عرفنا ذلك من أنّه قبلَ أن يصلَ إلى سُدّة الإمارة قد توسّطَ لإنهاء نزاعٍ بين الخليفة الفاطمي وأميرٍ على "حلب" . ونجح في مسعاه . وبذلك جنّبَ المدينةَ شرَّ الحرب وأهوالَها .

ثم أنّ أحمد ، أخا أبي طالب ، كان أيضاً شخصيّةً بارزةً بُروزاً مُتعدّدَ الجوانب . فالكراجكيُّ نفسُه يقول في فاتحة كتابٍ صنّفه له : "**أمرَ بعمله الشيخُ الجليلُ أبو الكتائب أحمد بن محمد بن عمّار**" . والقارئُ العارفُ سيلاحظُ دون صعوبةٍ هذه المُزاوجةَ غيرَ المألوفةِ بين لقبَي الرجل : "**الشيخ الجليل**" ، الذي يُفهَمُ منه أنّه كان فقيهاً كأخيه . و "**أبو الكتائب**" ، وهولقبٌ ذو نكهةٍ عسكريّةٍ غير خفيّة . فهذا يدلُّ على ما كان للأُسرةِ من موقعٍ عالٍ مُتعدّدِ الجوانب في "طرابلس" ، هو الذي أوصلها في الوقتِ المُناسبِ إلى الإمارة .

* * *

كانت إمارةُ بني عمّار على "طرابلس" الفرصةَ التاريخيّةَ التي اهتبلتها المدينة . في هذا الإطار السياسيّ الجامع والمؤاتي تفاعلتْ عواملُ وعناصرُ النّهوضِ الأُخرى ، التي سنقِفُ عليها عاملاً عاملاً وعنصراً عنصراً ، لتُنجبَ إحدى أعظم التجاريب الإنسانيّة في تاريخِنا ، إن لم تكُن أعظمَها على الإطلاق . ولن نمضي الآن في تقييم هذه التجربة ، بل سنقصرُ الكلام الآنَ على

الناحية الوصفيّة . تاركين تقييمنا لها إلى ختامِ هذا الفصل . بعد أن نكونَ قد استوفينا الكلامَ على معالمِ نهوضه الأُخرى ، التي سنبدأُ بها وبوصفِها مَعْلماً مَعْلماً على التوّ .

—

ب . في التنميةِ والانتاج

(١) في القاعدة التنمويّة الطبيعيّة لطرابلس

كلُّ ذلك السّرْد التاريخيّ ميدانُه "طرابلس" ، التي يُعرفُ موقعُها اليومَ بالميناء ، أو كما ينطقُهُ أهلُها اليوم : "المينه" . وهو عبارةٌ عن شبه جزيرة ، أعرضُ أجزائِها هو الغربيُّ المُمتَدُّ في البحر. تتصلُ بالبرِّ بخاصرةٍ أضيق قليلاً من جسمِها ، ذي التعرّجات العميقة . أكبرُ تلك التعرُّجات هو ذلك الذي شكّلَ ميناءَها الغربي ، المُغلَق من ثلاث جهات ، والمفتوحُ فقط على الجهة الشماليّة الشرقيّة . وحتى هذا فإنّه مَحميٌّ بعددٍ من الجُزُر القريبة المُتفاوتة المساحة . ولكنّها بمجموعِها تشكّلُ حمايةً نموذجيّةً للميناء من تأثير الرياح والأمواج العالية . وهذا الميناء هو الذي وصفه أحدُ البلدانيين القدماء بأنّه " **يتّسعُ لألفِ مركب**" . وكان من أعودِ مصادرِ دخلِ المدينة ، عن طريق الحركة التجاريّة التي تنشُط انطلاقاً أو وصولاً إلى الميناء ، أي الاستيراد والتصدير. وأيضاً عن طريق المكوس (الضرائب الجمركيّة) التي تتقاضاها إدارة المدينة من السُّفن القادمة من مُختلف البلدان . فتُفرغُ حمولَتها في الميناء ، ليجري نقلُها برّاً إلى أنحاء "الشام" أو"العراق" أو غيرهما ، أو العكس .

إلى الشرق من المدينة القديمة كان سهلٌ واسع خصيب ، يحتلُّهُ اليومَ جسمُ "طرابلس" الحاليّة . والسهلُ يرتوي من مياه

نهر"قاديشا" ، الذي يُعرفُ محلّيّاً بـ "نهرأبو علي". بل إنّ السهلَ الغرّينيّ الخصيب لم ينشأ إلا من تراكُم مجروفات النهر من المرتفعات الشرقيّة أثناء العصور المُتطاولة .

أضِفْ إلى ذلك أنّه إلى الشمال من المدينة الممرّ التاريخي ، المُسمّى ممرّ "حمص" ، ذو الأهمّيّة الاستراتيجيّة والتجاريّة الفائقة . وهو عبارةٌ عن مُنخفضٍ تعبرهُ القوافل بين الساحل وبين قلب "سورية". لتتجه من هناك إلى وادي الرافدَين . أو لتتصلَ بـ "طريق الحري" الشهير،الموصِلِ إلى الشرق البعيد وُصولاً إلى "الصين" . ومن هنا لُقّبت "طرابلس بـ " باب "آسية" .

هكذا اجتمع في "طرابلس" من المزايا ، ما توزّعَ في غيرها من المُدُن : ميناءٌ مُمتازٌ ، وسهلٌ واسعٌ خصيب ، وموقعٌ فريدٌ . ولم يبقَ لاستثمار هذه المزايا إلا الإنسان ، الذي يُحسنُ إعمالَ تلك المزايا لتوليدِ حالةٍ إنتاجيّةٍ مُتقدّمةٍ . تكونُ السبيلَ لبناءِ مجتمع كفايةٍ . وذلك ما حصل للمدينة في طورِها الإسلامي الرّغيد قبل البلاء الصليبي .

وإنّه لمن المُحزن حقاً أنّنا لا نجِدُ في كلِّ ما سطرهُ المؤرّخون أدنى عنايةٍ بوصف حالِها في هذا النّطاق . نعم ، هم ذكروا غناها المُدهش عرَضاً ، في سياقِ أحاديثهم على كفاحِ أميرِها لإنقاذ المدينة من السقوط بيد الغُزاة . من إنفاقٍ على شؤون الدفاع في الزمن المديد . ومن إنفاقٍ مُوازٍ لإغاثة المدنيين المُحاصَرين

وضَمان صمودهم . ومن هدايا باذخةٍ لذوي الشأن في المنطقة ، غير المُكترثين بما تُعانيه "طرابلس" المُحاصَرَة ، استجداءً لعونهم إياها في محنتِها .

(٢) وصفُ المدينة الناهضة

الوحيدُ الذي تركَ لنا وصفاً مُباشِراً لِما عاينه بنفسه من حال المدينة ، يوم دخلها عابراً قاصداً "مصر" ، هو الشاعر الإيراني ناصر خسرو القُبادياني ، الذي عرفناه من قبل . فسجّل لنا ما رآه بعينه الغريبة المدهوشة وصفاً مُفصّلاً . فيه شيءٌ من دهشة الغريب لِما يراه لأوّلِ مرّةٍ ، ممّا لم يكُنْ قد رأى مثلّه من قبل وهو القادمُ من بلدِ حضارةٍ عريقةٍ . وفيه شيءٌ من براعة الشاعر الذي يُحسنُ التعبيرَ عن ذاتِ نفسِه . فأتى وصفُه جامعاً بين مظاهرالغنى والثروة في "طرابلس" ، وبين مصادرِ ذلك . فكأنّه تقريرٌ احترافيٌّ خطّهُ قلمُ خبير .

يتضمّنُ (التقريرُ) ثلاثة عناصر ممّا يتعلقُ به غرضُنا الآن من البحث :

. الانتاج الزراعي : "**وحولَ المدينة المزارعُ والبساتين وكثيرٌ من قصب السُكّروأشجارُ النّارنج والترنج والموز والليمون والتمر . . . . وقد رأيتُ في طرابلس مثلَ ما رأيتُ في بلاد العجم من الأطعمة والفواكه . بل أحسنَ منه مائة مرّة**" . والنصّ بغنىً عن التعليق . ولكنّنا نُلفتُ

النظرإلى ذكره الإستكثارَ من قصب السُكّر، لعلاقته بالفقرة التالية . وقد أطنبَ البلدانيُّون في وصف الثروة الزراعيّة لـ "طرابلس" . لكنّنا لا حظنا أنّ وصفَ القُبادياني مُتميّز .

. التصنيع الزراعي . وهو يعتمدُ على الزراعةِ الكثيفةِ لقصبِ السُكّر ، وهذه هي علّةُ الاستكثار منه . حيث تُستخدمُ عصارتُه في صناعة السكر الأبيض ، الذي كان يُصدّرُ قسمٌ منه ، بحيث يصِلُ إلى "أُوروبة" . كما يُصنعُ الورقُ من أليافه المتينة بعد أخذ عُصارتِها . وقد وصف ناصر خسرو الورقَ المُنتَجَ في "طرابلس" فقال : "**ويصنعون بها الورقَ الجميلَ ، مثل الورق السمرقندي ، بل أحسنَ منه**" . ومن المعلوم أنّ هاتين المادتيَن كانتا من المواد النادرة، المطلوبة بقوّة من القادرين على شرائِها . وهو بما قال يقفُ بنا على سرٍ من أسرار غنى ورفاه المدينة . وإنّنا إذ نقرأُ كلماته ليملؤنا العجب من بلادة حِسّ تاريخنا المكتوب ، إذ لا نجِدُ فيه أدنى إشارةٍ إلى هذا الامتياز الإنتاجي البالغ الأهمية . مع أنّ الورقَ خصوصاً كان دائماً مادةً مُستوردَة . ولم تبدأ صناعتُها في الحضارة الإسلاميّة إلا بعد إنتاجِهِ في "طرابلس" بزمانٍ طويل ، وعلى يد عُمّالٍ فنّيين هنود .

. العُمران والعمارة . والقُبادياني يُطنبُ نسبيّاً في وصف إتقان وجمال عمائرها ومرافقِها . من سورها المتين المُجهّز بمُختلف أسلحة الدفاع . إلى أبنيتِها ذات الأربع والخمس والستّ طبقات . إلى

شوارعِها وأسواقِها الجميلة النظيفة "**حتى لنظنّ أنّ كلَّ سوقٍ منها قصرٌ مُزيّن** " .

—

ج ـ في الشأن الثقافي ـ الفكري

(١) في الأصالة الثقافيّةُ للمدينة

قلنا فيما سبق أنّ أوائلَ أُمراءِ بني عمّارعلى الأقلّ كانوا عُلماءَ فُقهاء . الأمرُ الذي من المُتوقّعِ أن يكونُ له أثرُه الطّيّب ، ولا ريب ، على سياستِهم في رعايةِ العلمِ وأهلِه ، ممّا سنفرغُ له بإيجازٍ بعد قليل .

لكنّ من الثابت أيضاً أن "طرابلس" كانت من قبلهم مقصداً للأدباء والشعراء وطلبة العلم من مُختلف البلدان ، ممّن يجدُ القارئُ ذكرَهم في مختلف المصادر . ممّا يُشيرُ ضمناً إلى أُصولِ ما عمل بنو عمّارعلى رفعه وتنميته والوُصولِ به إلى مستوىً رفيع . بل أيضاً إلى ما كانوا هم أنفسُهُم ، بوصفهم عُلماء فقهاء ، من بعض ثماره . فضلاً عمّا كان فيها من مكتباتٍ خاصةٍ أو موقوفةٍ ، يقصدُها من غيرِها من البلدان أيضاً الطامحون إلى زيادة معارفهم للاستفادة من خزينِها .

هذا ، بالإضافة إلى كثرة العاملين في المِهن ذات العلاقة بالمكتبات والكتاب ، من وِراقةٍ ونساخةٍ وتجليد . ممّن نجدُ ذكرَهَم أيضاً في المُطوّلات . ويخرجُ بسطُ الكلام عليهم عن غرضِنا . وهذا كلُّه يُشيرُ إشارةً مُجملةً ، ولكنّها كافية ، إلى أصالة المدينة في الاهتمام بالشأنيَن الثقافي والفكري . وأنّ بني عمّارإنما نفخوا في نارِ مُوقَدة فزادوها اتقادا وسطوعاً .

من السّهولة بمكان تدبيجُ الصفحاتِ الطّوال في أسماء المُحدّثين والشعراء من أبناء "طرابلس" وأعمالِهم أثناءَ نهوضِها . ولكنّنا سنختصرُ القولَ بما يلي :

من المُلاحظ أنّ المُحدّثينَ الأوائِلَ المنسوبين إليها كانوا من مُختلف المذاهب. بل إنّ قسماً غير قليلٍ منهم غيرُ معلوم المذهب على نحو مؤكَّد. بل يختلفُ أربابُ السِّيَر والرجال بشأنِ مذاهبهم على أقوال . وهذا بنفسه أمرٌ ذو مغزىً حسن . إذ يُشيرُ ضمناً إلى أنّ الفوارقَ المذهبيّةَ لم تكُن بتلك الحدّة بحيث تفوزُ عند كُتّاب السِّيَر بالتنصيصِ عليها . وأنّ صفاتِ المُحدّث من حيث الصّدق والضبط كانت تأتي في الاعتبار الأوّل . شأنُهم في هذا شأنُ المُحدّثين الأوائل ، قبلَ مذهبَةِ الحديث .

ثم أنّنا نُلاحظُ أيضاً أنّه منذ القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي بدأ الفقهاءُ الشيعةُ يبسطون سُلطانَهم على الحِراك الفكري في المدينة إجمالاً . ونظنُّ أنّ السببَ في ذلك يرجعُ إلى العالِمِ الجليل محمد بن علي بن عثمان الكراجكي وبادرتِهِ العظيمة ، التي كان لها الفضلُ في افتتاحِ الصِّلة بين مدينتهِ وبين البيئةِ العلميّة العريقة الغنيّة في "بغداد" . وذلك إذ كان أوّلَ مَن شدّ الرّحالَ إليها ، فأقام بها بضع سنين يقرأ على شيخِها الجليل الشيخ المفيد . فلما رجعَ حملَ معه إلى الحياةِ الفكريّةِ في "طرابلس" خاصّةً وفي المنطقةِ عامّةً ما منحها روحاً جديدةً وزادها غنىً وتنوّعاً . بعد

أن كانت فقيرةً نسبيّاً. أكثرُ عنايتِها بالحديث ، لا تكادُ تعدوه إلا إلى شعر الشعراء . وقد ترك الكراجكيُّ عشراتِ المُصنّفاتِ في مختلف المعارف والفنون . بعضُها مالايزالُ موضعَ العناية حتى اليوم . ثم سار على الدّرب الذي عبّدَهُ من بعده عبد العزيز بن نحرير الطرابلسي الشهير بابن البرّاج ، ثم أسعد بن أحمد بن أبي روح الطرابلسي . وهؤلاء الثلاثة هم أجلُّ مَن أنجبتهم "طرابلس" في نهضتها القصيرة من العلماء.

(٢) مُبادرات بني عمّار
باتجاه البعث الفكري للمدينة

في هذا السّياق من التجديد والإغناء لا يُمكن أن ننسى مُبادراتِ أُمراءِ بني عمّارالمُتعدّدة والكبيرة في الميدان الثقافي . الإعدادي ، التي جعلت من مدينتهم منارةَ "الشام" الوحيدة طيلةَ مُدّة حكمهم لها .

في رأس تلك المُبادرات تأسيسُ الأمير أمين الدولة عبد الله "دارَ العلم" ، أكبرَ وأعظمَ مكتبةٍ في زمانِها . ثم "دارَ الحكمة" ، المدرسة الكبرى التي كان يرأسُها دائماً أعرفُ علماء المدينة . وتخرّجت منها أعدادٌ غفيرة ، أكثرهم ممن ضاع ذكرُهم في كوارث الأيام الآتية . وكان أميرُ المدينة ينفقُ عليهم الجرايات السخيّة . ومن ذلك خمّنّا أنّ عديدَ طُلاّبها لم يكن قليلاً .

بفضلِ ذلك كلّه غدتْ "طرابلس" في زمانِهم مقصدَ طُلاّب العلم . وممّا يدلُّنا على العناية البالغة التي كان يوليها أُمراؤها المُتوالون للعلمِ وأهلِه ، أن الأمير جلال المُلك جدّدَ بناءَ مكتبة "دارَالعلم" ، مع أنّ بناءَها السّابق كان واسعاً ولا ريب ، بدليل عدد الكتُب التي حوته ، المُقدّر حسب أقلّ الروايات بمائة ألف كتاب .

—

د . تعقيبٌ وتنويه

(١) تقييم ومُوازنة وُجوه نهضة طرابلس

اقتصرَعملُنا في الأقسام الثلاثة السابقة من هذا الفصل على وصفِ وُجوه نهضة "طرابلس" الثلاثة في السياسة والتنمية والثقافة ، بوصفِها النهضةُ الأُولى في تاريخنا الوطني ، وجهاً وجهاً بأوجزِ ما يُمكن .

ولكن وبما أنّ الوصفَ الموضوعيَّ الحياديّ وحدَهُ لا يُمكن أن يفي بحقِّ التعريف بمعنى ومغزى ماوصفناه . لأنّ النهضةَ ليست إنجازاتٍ فقط ، وإنّما هي أيضاً حركةٌ تقدُّميّةٌ إلى الأمام في محلٍّ له تاريخ . لابدّ لفهمِها وتقييمِها من وضعِها في سِياقِها الواقعي الموضوعي ، إمّا كسابقةٍ وإمّا كتقليدٍ حسبَ ووِفقَ ما تكون . لذلك فإنّ الكاتبَ يرى لِزاماً عليه أن يقولَ أين بالذات ولماذا منحَ مجموعَ تلك الإنجازات إنجازاً إنجازاً صفةَ النهضة الممتازة .

ونحنُ إذا أردنا أن نُعقّب على الوصف بما يُقيّمه ويمنحه المعنى والموقع الذي يستحقّه ، وأن نُنوّهَ بالإنجازات بأخصر كلمات ، فإنّني أرى أنّ هذا الغرض يتمُّ بالقول :

إنّ "طرابلس" في نهضتِها قد سلكتْ سبيلَها الخاصّ حصْراً . وإنّها كانت في كلِّ وُجوهِ نهضتها صاحبةَ المُبادرات التقدُّميّة غير المسبوقة .

وعلينا أن نُبيّنَ ذلك وجهاً وجهاً

(٢) في السياسة والنظام السياسي

وأحرى ما ينبغي للمتأمّل أن يقِفَ عندّه من وجوه تلك النهضة ، هو في أن يأتي في "طرابلس" عالِمٌ فقيهٌ على رأس السُلطة ، بقَبولٍ حرٍّ من أهلِها . ذلك لأنّ تلك سابقةٌ في تاريخ الأُمم الإسلاميّة . وخصوصاً أنّها حدثتْ في عصرٍ كان السيفُ الدّامي فيه أقصرَ طريقٍ للوصول إلى كرسيّ الحكم .

والحقيقةُ أنّ العارفَ بالسّياق الذي تطوّر فيه مفهومُ السُلطةِ في تاريخ الثقافة الإسلاميّة ، ليملؤهُ العجبُ أنّه في ذلك العصر، الذي كان فيه ذلك المفهومُ ينحدرُ بسرعةٍ إلى أكثرِ أشكاله انحطاطاً ، وُصولاً إلى قاع المُستنقع المملوكيّ ، الذي صادرَ كلّ شئ لمصلحة العسكرتاريا المملوكيّة ، من الأراضي الجيّدة إلى كافّة المناصب السياسيّة والعسكريّة صغيرةً وكبيرة . ، تنشأُ في "طرابلس" دونَ غيرِها سُلطةٌ على رأسِها فقيهٌ عالِمٌ من وزن أمين الدولة أبي طالب عبد الله بن محمد بن عمّار في علمه وكياسته وحُسن إدارتِه ، إلى آخر ما عرفناه من صفاتِه وأعمالِه .

هذا ليس مُجرَد إنجازٍ شخصيّ لرجلٍ يستحقُّه بكامل الجدارة . بل هو أيضاً ، بل قبلُ رُتبةً ، إنجازٌ جَمْعيٌّ لمُجتمعٍ لديه مفهومٌ مُتقدّمٌ للسُّلطة ، لا علاقةَ له بكلِّ ما يجري من حولِه . وما

من ريبٍ في أنّ هذا المفهوم يتصلُ بالذاكرةِ التاريخيّة القريبة المُثخَنَة للغالبيّة الهمْدانيّة بين سُكّان المدينة . وهم الذين قاتلَ أجدادُهم ، وقدّموا زهرة رجالهم في سبيل نُصرةِ المشروعِ السياسيّ المُتقدّمِ بما لا يُقاس للإمامِ عليّ(عليه السلام). ثم كانت النتيجة أن شُرّدوا بفعلِ ألاعيبِ السياسة من وطنهم الثاني الذي اختاروه بملء إرادتهم "الكوفة" . بعد أن كانوا قد غادروا وطنهم الأصلي "حضرموت" . ومن المُستبعَدِ جدّاً أن يكونَ أخلافُهم بعد بضع أجيال قد نسوا كلَّ تاريخهِم وجهادَ أسلافهِم والحُلُمَ العظيم الذي منحوه كلَّ ما بوسعهم .

من هنا، من تلك الذّاكرة ، فإنّهم ، فيما يبدو لنا ، استنبتوا بطريقةٍ ما دولتهم المُتفرّدة بصفاتِها. يسهُلُ قولُ ذلك إجمالاً ويعسُرُ التفصيل . لأن تاريخنا البليد لا علاقةَ له بكلّ شؤون البشر .

(٣) في التنمية والانتاج

في النّطاق التنموي الإنتاجي . فقد وقفنا على الشروط التنمويّة المؤاتية التي تمتّعتْ بها "طرابلس" ، وحُسنِ استفادةِ أهلها وقادتِها بذكائهم ونشاطهم وحُسنِ سياستِهم لموقعِها وميناًئها ومُزدرعِها الخصيب المَرويّ .

لكنّ النقطةَ ذات الامتياز في هذا هي الانتقالُ بسرعة من نمطٍ من الإنتاجِ إلى نمطٍ أرقى . على ما في النمط الأوّل من كفايةٍ لمَن اكتفى . وذلك حيث تحوّلَ إنتاجُها الزّراعيُّ إلى ما نُسمّيه اليوم

التصنيع الزراعي . وهي مرحلةٌ مُتقدّمة جدّاً على الزّراعة الصِّرفة مهما تكُن ناجحة ومُثمرة . وذلك بإنتاج السكر والورق بكمّيّاتٍ كبيرة ، بحيث كانت تصِلُ إلى "أُوروبة" . وبذلك كانت من أهمّ اسباب غنى المدينة ورفاهِ أهلِها .

في النطاق الفكري . الثقافي

أمّا في النطاق الفكري . الثقافي فقد عرفنا أنّه في "طرابلس" في تلك الفترة أُنشئت "دارُ العلم" أوّلُ مكتبةٍ كبرى في المنطقة الشاميّة ، و "دارُ الحكمة" أوّل مدرسةٍ عُليا فيها . ممّا كان السببَ في دفع الحركة العلميّة الضئيلة الفقيرة فيها إلى مستوىً أعلى بكثير في تنوّعها واتساعِها . بحيث غدتْ "طرابلس" في ذلك الأوان العاصمةَ العلميّةَ الإقليميّة .

هذا التقدّم الفريد توّجَه عالمُ "طرابلس" الجليل محمد بن علي بن عثمان الكراجكي بريادته افتتاحَ الصّلةَ العلميّة المقطوعة بين "الشام" و"بغداد" . وهي أولُ بادرةٍ من نوعها .

ومع أنّ "طرابلس" سقطت بعد الكراجكي بنصف قرن تقريباً بيد الصليبين ، وغدت إمارةً لاتينيّةَ الوجهِ واللسان ، فإنّ بادرته لم تذهب كلُّها سُدىً . بل كانت هي وما ترتّبَ عليها بمثابةِ السّابقة أمامَ ما سيُصبحُ بعد قليل أساسَ النهضة العامليّة الكبرى . التي

انداحت بدورها في الأقطار ، وُصولاً إلى "العراق" و "إيران" و "الهند" . بانيةً النهضاتِ حيثما حلّت .

—

الفصل التاسع

—

في خِضَمّ النكبات

(١) البلاءُ الصليبي وآثاره

كانت بدايةُ القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي نهايةَ الفترة السعيدة في "لبنان" . حيث عاش أهلُهُ مُدّة قرون حياةً آمنةً مُطمئنّةً لا يُكدّرُ صفوَها خوفٌ ولا ألم . انتشرالشيعةُ من أهلِه أثناءَها في مُختلف بلدان الساحل اللبناني ، وكان منهم أكثريّةُ سُكّانٍ كبيرةٌ في "طرابلس" و"صيدا" و"صور" . كما كانوا موجودين أيضاً في "بيروت" . التي كانت يوم ذاك قريةً صغيرةٌ لا شأنَ لها . ثم نزلَ بهم البلاءُ الصليبيُّ القادمُ من "أُوروبة" .

تهاوتْ مُدُن الساحل جميعُها بالتوالي أمامَ الغُزاة . وطبعاً كان سقوطُ كلٍّ منها سقوطاً لأرباضها وما يطيفُ بها من قُرىً ومزارع . وغدتْ المُدُنُ الثلاث إماراتٍ صليبيّةٍ ، يقطنُها ويحكمُها غُرباءُ الوجه واللسان .

من النتائج المُباشرة لهذه الأحداث المهولة ، البعثرةُ السُّكّانيّةُ الهائلة لكلِّ سُكّان الساحل من أدناه إلى أقصاه . وكما يحدثُ دائماً في هذه الحال ومثلِها ، فإنّ سُكان "طرابلس" و "صور" لجأوا إلى أقرب الجبال إليهم . هكذا تصحُّ القاعدة القائلة ، إنّ كلَّ

انهيارٍ لحالةٍ سُكّانيّة قد يكونُ قاعدةً لحالةٍ جديدة ، تلِدُ بدورِها تفاعلاتٍ جديدة .

هكذا عَمُر جبلان لم يعرفا السُّكنى منذ الفتح الإسلامي : "جبل لبنان" عَمَرَهُ أهل "طرابلس" . و "جبل عامل" عَمَرَهُ أهلُ "صور" ، فضلاً عن جموعِ النازحين للسبب نفسه من وادي "الأُردنّ" وخصوصاً من مدينة "طبريّة" وعشرات القُرى والمزارع المُطيفة ببحيرتِها العذبة ومن بعض نواحي "فلسطين" . أمّا أهلُ "صيدا" فإنّ التهجيرَ لم ينلهُم ، لأن مُحتلّيها من الصليبيين الهنغاريين كانوا قِلّةً في أنفسهم ، وإنما استولوا عليها بمُساعدةٍ مؤقّتةٍ من الحُجّاج الجنويين وأُسطولِهِم ، الذين غادروا المنطقة بعد ذلك مُباشرة . لذلك فإن سادتَها الجُدُد تركوا أهلها حيث هم لحاجتهم إليهم في العمل لهم . وفيها عاش آخرُ كبار علماء "طرابلس" الثلاثة : أسعد بن أحمد بن أبي روح ، الذي غادر بلدَه في مَن غادرها ، وعاش سنواتِ عُمره الأخيرة في "صيدا" ، وقُتل في وقعة الاحتلال . وما يزالُ قبرُهُ فيها معروفاً مَشيداً . وإن غُمّتْ على الناس حقيقةُ شخصِ صاحبِه .

(٢) جبل لبنان وسُكّانُه الجُدُد

لسنا نعرفُ الكثيرَ عمّا اضطربتْ فيه أحوالُ النازحين من "طرابلس" إلى "جبل لبنان" طوالَ مدّة الاحتلال الصليبي ، الذي

طالَ مائةً وخمسةً وثمانين سنة قمريّةً عدّاً (٦٨٨.٥٠٣ هـ / ١٢٨٩.١١٠٩م) . ولكنّنا ما نشكُّ في أنّهم تكاثروا في موطنهم الجديد . وأنّ لونَ حياتَهم فيه قد اختلف تماماً عن النَّعم الوافرة التي تمتّعَ بها آباؤهم من قبلُ في "طرابلس" . كما أنّهم حملوا معهم منها أثراً ما للحياة العقليّة الخصبة التي نعُمَ بها أسلافُهم . وإن تكُن معالمُها قد ضاعت في كوارث الأيام القادمة . ممّا سنقفُ عليه وعليها بعد قليل .

ومن الآثارالهمْدانيّة الحضرميّة الباقية حتى اليوم في "كسروان" و"جبيل" وما والاهما ، كلمة (أبي) ، بهذه الصيغة تحديداً، في أسماءِ كثيرٍ جداً من الأُسراتِ هناك مسلمةً ومسيحيّةً : أبي حيدر، مسلمون ومسيحيون . أبي هيلا ، مسيحيّون . أبي رعد، مسلمون . أبي نادر، مسيحيّون . أبي ناصيف ، مسيحيّون . أبي يونس، مسلمون ومسيحيّون . أبي اللّمع ، مسيحيّون . وغيرهم كثيرون جدّاً . ودلالة ذلك مُزدوجة ، وهذا واضحٌ .

هذه الكلمة بهذه الصيغة تحديداً لا تُسمعُ في كلِّ أقطار "الشام" إلا هناك . أمّا الصيغةُ الشاميّة في مناطقهِ الأُخرى فهي (أبو) حصراً . وهي ، على كلِّ حال ، قليلةٌ في أسماء الأُسرات هناك . خلافاً لـ (أبي) الكثيرة في أسماء الأُسرات الكسروانيّة العريقة . والذي لديه أدنى معرفة بأسماء الأُسرات في "حضرموت" يعرفُ كم تشيع فيها كلمة (أبا) في أسماء الأسرات ، وتُختصرُ أحياناً إلى

(با) . هي ولا شك أصلُ (أبي) ، بعد أن خضعتْ لقواعد النُطق في اللسان الشامي ، وهو الذي يُميلُ نطقَ حرف الألف قليلاً . ثم جُعلت بالياء في الكتابة المُتفاصحة .

أمّا أحوالُهم في الجبل الآخَر ، أعني "جبل عامل" ، فقد كانت مُشابهةً لأحوالِ إخوانهم في الجانب المعاشي ، ولكنّها غدت مُتقدّمةً بما لا يُقاسُ في الجانب العقلي . كما أنّها في الجانب السياسي حظيتْ بقائدٍ تاريخيٍّ هو الأمير حسام الدين بشارة ، الذي كان أوّلَ زعيمٍ أنجبه "جبل عامل" . كان له دورٌ تاريخيٌّ بنقلِ الجبل من ملجأٍ لمّ شُتات نازحين من أماكنَ مُتباعدة ، إلى وطنٍ له أميرٌ رمزٌ قادهُ في سوحٍ مجيدةٍ . ولتكُنْ هذه الكلمات إشارةً وتمهيداً للفصل الآتي المُخصّص لـ "جبل عامل" ونهضته العظيمة القادمة .

(٣) المماليك يُتابعون ما بدأه الصليبيون

هدمُ أكبر مدينتين في لبنان

في السنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م حرّرَ السلطانُ المملوكيُّ قلاوون الألفي مدينةَ "طرابلس" من الاحتلال الصليبي . لكنّه اتخذَ على الأثر أغربَ قرارٍ يُمكنُ تصوّرُه في هذه المناسبة البهيجة . قضى بهدمِ المدينة العظيمة ، فهُدمتْ وسُوّيتْ أسوارُها العالية المتينة وأبنيتُها بالأرض. وبعد سنتين حَرّرَ مدينة "صور" ، وكان مصيرُها مصيرَ رصيفتِها . والحُجّةُ التي تُقالُ وتُردّدُ في هذا العمل المُستهجَن

، أنّهما هُدمتا خشيةَ عودة الصليبيين إلى الاستيلاءِ عليهما والتحصُّن فيهما .

لكنّ هذه الحُجّة الباردة تطرحُ سؤالاً كبيراً هو : لماذا لم يُتخذْ القرارُ نفسُه بالنسبة لـ "بيروت" و "عكّا" ؟ مع أنّهما مدينتان على الساحل نفسِه ، وقد حُرّرتا في زمنيّن مُقاربيّن لتحرير "طرابلس" و "صور" . أضِفْ إلى ذلك أنه لو انّ السُلطة المملوكيّة كانت حقاً قلقةً من احتمال عودة الصليبيين إلى مُحاولةِ استعادة المدينتين، لكان عليها أن تعمدَ إلى تحصينهما وتزويدِهما بالمُقاتلين والسلاح والأقوات ، كما تقضي أبسطُ تكتيكات الدفاع . من وُجهةِ نظرٍ دفاعيّةٍ فإنّ النتيجةَ المُباشرةَ لهدمهما هو حرمانُ منطقتِهما ، ذات الموقع الاستراتيجي البالغ الأهميّة ، من مركزٍ دفاعيٍّ أثبتَ فاعليّتَه منذ ما قبل الفتح الإسلامي بكثير. وإلا فلماذا يبني المُدافعون الحصونَ والقِلاعَ ويرفعون الأسوار في أماكنَ يختارونها لمواصفاتِها الدفاعيّة المُمتازة أو لضرورتِها ؟! ومن المعلوم أنّ هذه المُواصفات تتوفّرُ في المدينتيَن بدرجةٍ عاليةٍ . بل إنّ ذلك هو السببُ الأساس في تمصيرهِما منذ القِدَم .

من المُؤكّد أنّ السببَ الحقيقيَّ لهدم المدينتيَن ، لم يكُن الخشيةَ من عودة الصليبيين . فالحقيقةُ التي يعرفُها المؤرخون جيّداً أنّ الحركةَ الصليبيّةَ في مواطنِها الأصليّة كانت في ذلك الأوان قد أصبحتْ جزءاً من الماضي . ولم يعُد من المُتوقّع أن تكونَ قادرةً

على أخذ مُبادراتٍ بحجم انتزاع مدينتيّن بأهميّة "طرابلس" و "صور" من القوّة المملوكيّة ، التي كانت آنذاك في عزِّ سطوتِها .

لذلك فإنّنا نُرجّحُ بقوّةٍ ، بل نؤكّدُ ، أنّ الغرضَ الحقيقي لم يكُن إلا منعُ سكّانِهما الأصليين من العودة إليهما . وهم الذين عرفنا ممّا فات قبل قليل أنّهم بعد أن هُجّروا منهما قد لجأوا إلى الجبال المُجاورة . وكانوا لا يزالون حتى تاريخ تحريرهما يُقيمون فيها . وسيكونُ من المُتوقّع جدّاً ، أنّ هؤلاء عندما يرون مدينتيهما السّليبتيَن قد تحرّرتا وفرغتا من سكانهما الغُرباء ، أن يُسارعوا إلى الهبوط عائدين إليهما . وحتى مع فرْض أنّ ذاكرةَ هؤلاء لم تعُدْ مُتعلّقةً بوطنهم القديم ، وذلك أمرٌ بعيدٌ جداً ، فإنّ مُجرّد الفراغ السُكاني للمدينتيَن القريبتيَن العامرتيَن سيكونُ بنفسه حافزاً كافياً لهم للهبوط إليهما . خصوصاً إذا نحن أخذنا بعين الاعتبار أنهم كانوا آنذاك أكبرَ التجمّعاتِ السُكانيّةِ بجوارهما . وأنّ منازلَهم الحاليّة كانت مناطقَ جبليّة وعرة شحيحة . لا تُقاسُ بـ "طرابلس" و "صور" .

لكلِّ ذلك فإنّنا نقول أنّ هدمَ المدينتيَن يندرجُ في خِطّةٍ سياسيّةٍ عُليا ، يبدو أنّها قُرّرتْ على أعلى المُستويات . نفّذتها السُلطةُ المملوكيّةُ بحزمٍ ودقةٍ ، بصرف النظر عن تكلِفتِها المادّيّةِ والمعنويّة . تقضي بالحيلولة بين سُكّانِهما الشيعة وبين أن يعودوا إلى ما كانوا عليه من انتشارٍ وحُضورٍ فاعليَن في المنطقة قبل الصليبيين . خصوصاً في الأماكن ذات الأهميّة الاستراتيجيّة ،

ومنها ، بل في طليعتِها ، مدينتا "طرابلس" و "صور" . وسنرى توّاً أنّها تابعتْ هذه السياسة بحزمٍ ما بعدَه حزم . تابعتْ مُطاردةَ الشيعةِ لدفعهم باتجاه المناطق الداخليّة . حيث ينعدمُ أو يكاد تأثيرُهم السياسي . وسنرى أن ملعبَها التالي في الموقع الأخير لهم على الساحل والجبل المُشرف عليه .

(٤) نكبة كسروان

الغطرسة والقسوة تصنعان التاريخ

في السنة ٦٩١ هـ/١٢٩١م ، أي بعد أربع سنوات من تحرير"طرابلس" ، وسنةٍ واحدةٍ من تحرير "صور" وهدمِهما ، حصلَ أوّلُ تحرُّشٍ للسُلطة المملوكيّة بأهل "كسروان". فـ "**خرج الأمير بيدرا ، نائب السّلطنة بديار مصر، ومعه معظمُ العسكر، إلى جبال كسروان من جهةِ الساحل . فلقيَهُم أهلُ الجبال . وعاد بيدرا شِبهَ المهزوم . واضطربَ العسكرُ اضطراباً عظيما**" . وممّا يجدرُ بنا قولُهُ وفهمُ مغزاه ، أنّه ما من أحدٍ من أهلِ السُلطة وألسنتِها نبسَ ببنتِ شفةٍ على علّةِ وسببِ هذا العمل العسكريّ الكبير ، الذي ترأسهُ الرجلُ الثاني في الدولةِ بعد السلطان . ممّن سنرى صنائعَ السُلطة ، من فقهاء ومؤرخين ، يتفنّنون به بعد قليل . أي بعد سقوطِ "كسروان" في الحملة التالية ، وتقتيلِ أهلِها وتهجيرِ مَن لم ينلهُ حدُّ السيف أو الخنقِ بالدخان منهم . مع أنّ هذا العمل ينطوي على تحوّلٍ أساسيٍّ في العقيدة العسكريّة للمماليك . الذين ، منذ مؤسّسِ دولتهم بيبرس البندقداري، قدّموا

أنفسَهم مُدافعينَ عن حوبة الإسلام في وجه الاجتياح المغولي، بانتصارهم الباهر في "عين جالوت" . ثم في وجه الاحتلال الصليبي ، بما حرّروه من أراضٍ ومُدُن . حيث لم يفعل غيرهُم إلا الفشلَ والخذلان والهوان. وبفضل هذه الانجازات نجحوا في الارتقاءِ بأنفسهم من مماليك أرقّاءَ إلى سلاطينَ وأُمراء. وغدوا طبقةً عسكريّةً تقبضُ على كلِّ مفاصلِ السُلطة والثروة . أمّا الآن فهاهم يوجّهون جيشاً لَجِباً هو "**مِعظم العسكر**" إلى بقعةٍ من دار الإسلام عُمّارُها مسلمون. ومع ذلك فما من أحدٍ كلّفَ نفسَه عناءَ تقديم أي تبريرٍ لذلك .

ليس لدينا أيّ أوهام على طبائع الحكم المملوكي ، بحيث نُطالبه بالشفافيّةِ والعدلِ وتقديمِ الحساب للناس عمّا يفعلُ وما لا يفعل . فنحن نعرفُ جيّداً أنّه كان حكمَ عسكريين مُحترفين ، قام على السيف والسطوة والغلبة بوصفِها الوسيلةَ الفُضلى لحلِّ أي إشكالٍ سياسي . ولكنّنا نُوجّهُ ذهنَ القارئ نحو إجراءِ مُقارنَةٍ ذهنيّةٍ بين سكوت السُلطةِ وألسنتِها ، وعلى رأسهم فقهاؤها ، عن تبرير المُحاولة الأُولى الفاشلة . في حين حشدوا كلَّ ما عندهم من حُجج كاذبةٍ لتبرير المُحاولة الثانية التي انتهت بالاجتياح .

في السنة ٧٠٥ هـ/ ١٣٠٥م بدأت الأعمالُ العسكريّةُ الثانية الرّاميةُ إلى إخراج الشيعة من "كسروان" وما والاها نهائيّاً . فتوجّهَ جمْعٌ عسكريٌّ غيرُ مسبوقٍ في نزاعٍ داخليٍّ إلى مواقع القتال . تقدّمهُ

فقيهُ السُّلطةِ ابنُ تيمية الحرّاني ، على رأس كلِّ مَن نجح في حشدهم من الناس تحت مُختلف الذّرائع . بالإضافة إلى عسكرِ السُلطةِ القادمِ من "دمشق" و "طرابلس" ، وعسكرِ بعض الأُمراء المحلّيين . فأحاطوا بالجبل من كلِّ ناحيةٍ . وبدأوا الصعودَ إليه من جهة الساحل ، قُربَ بلدة "طبرجا" اليوم . في حين أنّ عسكرَ "طرابلس" صعد من محلٍ آخرَ غير معروف ، في خطّةٍ ترمي إلى وضعِ أهلهِ بين فكّي كمّاشة .

لسنا نملكُ معلوماتٍ وافيةً عن سَيْر القتال . لكنّنا نفهمُ من بعض النصوص أنّ المُدافعين اعتمدوا سلاحَ السِّهام . وهو سلاحٌ يُناسبُ الطبيعةَ الجبليّة ، بما فيها من مكامنَ طبيعيّة ، كما يُناسبُ الكثرةَ الطّاغيةَ للمُهاجمين . وأنّ المعاركَ دارتْ لمُدّة خمسة عشر يوماً بين ٢ و ١٧ مُحرّم . كان المُدافعون يتراجعون أثناءَها من موقعٍ إلى موقع . وكانت المعركةُ الأخيرةُ بالأعالي ، في قرية "نيبيّة" من قُرى "المتن الشمالي" . حيث لجأ المُدافعون المُنهَكون ، بمن معهم من نساءٍ وأطفالٍ ، إلى مغارةٍ كبيرةٍ . فما كان من المُهاجمين ، الذين تهيّبوا دخولَها خشيةَ التعرُّض لسهام المُدافعين وكمائنهم ، إلا أن عمدوا إلى تقطيع كمّيّةٍ كبيرةٍ من الزُّروع والأشجار أشعلوها عند فم المغارة . فقضى كلُّ مَن فيها اختناقاً بالدخان . والظاهرُ أنّ المُهاجمينَ اتّبعوا هذا الأُسلوب حيثما لجأ السُكانُ إلى المغاور والكهوف . وهي كثيرةٌ في تلك الجبال .

نذكرُ بالمُناسبة أنّه قبل زُهاء عشرين سنةٍ ، أعلن وزيرُ السياحةِ في "لبنان" بمؤتمرٍ صحفي أنّ أحدَ هُواة اكتشافِ المغاور والكهوف في المنطقة عثرَ في إحدى مغاور الجبل الكثيرة على عدّة جثث ، ما تزالُ هي وما عليها من ملابس جميلة محفوظةً بنحوٍ جيّدٍ يدعو إلى الدهشة . وقد عرفتُ بمجردِ اطّلاعي على الخبر أنّ هؤلاء من ضحايا نكبة "كسروان" . أوّلاً لأنّ وضعَ الجثث بهيئتِها التي وُجدتْ عليها ، وما عليها من ملابس ، ليس وضعَ دفنٍ شرعيّ. ممّا يدلُّ على أنّها بقيت حيث مات أصحابُها . وثانياً لأن تعرُّضها لدخانٍ كثيفٍ مُدةً كافيةً يُفسّرُ حفظَها كل تلك القرون على ذلك النحو المُدهش . فمن المعلوم أنّ التدخين الكثيف هو من أفضلِ أساليبِ حفظ المواد العُضويّة .

وإدراكاً منّي لأهميّةِ هذا الكشف ، خصوصاً وأنّ عدّة كُتُبٍ مخطوطةٍ قد وُجدت إلى جانب الجثث (ممّا يدلُّ على حرصِ أولئك المساكين الفائق على كُتُبُهم ، بحيث حملوها معهم أثناء هربهم من مُطارديهم) ، قد تكونُ الآثارَ الفكريّةَ الوحيدةَ الباقيةَ من الماضي الثقافي الضّائع لأسلافنا في "كسروان" ماقبل النكبة ، . فقد قابلتُ وزير السياحة آنذاك ثم مديرَ المتحف الوطني حيث حُفظت اللُّقى . طالباً الاطلاع خصوصاً على الكُتُب ولو من بعيد . ولكنّ كل مساعيَّ في هذا السبيل ذهبتْ أدراجَ الرياح . وبعد الإلحاحِ ووساطةِ عددٍ من كبار المسؤولين، حسمَ الوزيرُ المُختصُّ الأمرَ بأن قال لي

ما مؤدّاه ، إنّ هذه اللُّقى ، خصوصاً الكُتُب ، هي مسألةٌ سياسيّةٌ بامتياز. يعني أنّ كل ما يتصلُ بتاريخ "كسروان" هو موضع تجاذُب بين مختلف الطوائف ، بعد أن غدا في موضع القلب من مشروعٍ سياسيّ . ولذلك فليس له أن يقضي فيها من عنده . ولسنا نعرفُ مصيرَها من بعد. وإنّني أُسجّلُ هذه المعلومة كي لا تُنسى ولعلّ وعسى .

(٥) النتائج الاجتماعية والسياسيّة المُتمادية لمذبحة كسروان

في نهاية هذا المطاف الدّامي استُبيحتْ المنطقة الجبليّة الممتدة بموازاة الساحل ، من مصبّ نهر الكلب قُربَ "بيروت" جنوباً حتى "البترون" شمالاً . أي ما يُعرف بـ "كسروان" و "جبيل" و "المتن". فقُتل مَن قُتل ، وهم كثيرون بمَن فيهم من النساء والأطفال . **"والسّالم منهم تفرّقوا في جزّين وبلادِها والبقاع وبلاد بعلبك . ومنحتْ الدولةُ لبعضهم الأمان"** . أي سُمح لهم بالبقاء في وطنهم بقاءً مشروطاً ، حيث ما يزالُ من أعقابُهم حتى اليوم .

نختمُ هذا الفصل بالإشارة إلى أمريَن :

. الأول : إن نكبةَ "كسروان" قد نالتْ فيما نالتهُ حالةً سُكّانيّةً واعدةً ، لو انّها استمرّتْ بسلام ، لكان من المُمكن أن تنمو وتنتشر ، لتُنجبَ لبناناً مُختلفاً كثيراً عمّا هو بعدها. بل إنّها أسّستْ

لحالةٍ سُكّانيّةٍ جديدة . ذلك أنّ الفراغَ السُكّانيّ النسبيّ ، الذي نشأ بإخراج الشيعة من المنطقة، قد أدّى إلى رفْع الحاجز الذي كان يحولُ بين الموارنة في الأعالي الشمالية وبين الانتشار جنوباً . فانطلقوا هابطين من موطنهم التاريخي ، ليصِلوا أثناءَ القرون التالية إلى حدود "فلسطين" . كما أنّ جُموعَ التركمان الذين جلبتهم السُلطةُ المملوكيّةُ وأسكنتهم مكانَ الشيعة ، في مُحاولةٍ لملء الفراغ نفسه ، لم تنجح بسبب الطبيعة الجبليّة للمنطقة التي لا تُلائم نمط حياتهم بوصفهم رُعاة أغنام ، فهبطوا منها باتجاه السواحل ، ثم انتشروا بكثافة من "طرابلس" الجديدة و "عكّار" إلى "صيدا" . انتشاراً مدعوماً من السُّلطة الإقليميّة .

هكذا نرى أنّ الغرضَ السياسي الذي كان وراءَ اجتياح "كسروان" وما والاها قد وصلَ إلى نتائجَ غير محسوبة ، بل مُختلفةٍ تمامَ الاختلاف . وأنّ الجغرافيا البشريّةَ الحاليّة لـ "لبنان" قد تشكّلتْ على قاعدةٍ من خطيئةِ "كسروان" . مُنتجةً تفاعلاتٍ من كلِّ ما يخطرُ بالبال : سياسيّةً واجتماعيّةً لم تخلُ من العنف ، ما تزالُ فاعلةً مُستمرّةً حتى اليوم .

. الثاني : أنّها أنشأت حالةٌ سُكّانيّةٌ جديدةٌ حصلت أيضاً في النطاق الشيعي . فقد عرفنا إجمالاً أنّ النكبة قد انتهت إلى تهجيرٍ واسعٍ لشيعة "كسروان" ، اتجهوا إلى سهل "البقاع" و"جزّين" وبلادِها

. الأمر الذي كان له نتائجُهُ المباشرة على مواطن انتشارهم الجديدة .

بالنسبة لـ "سهل البقاع" . فالظاهرُ أنّ بلدة "الكرك" قد نالتْ أكبرَ عددٍ من المُهجّرين. وذلك بفضل وقوعِها على فم الطريق المسلوك بين السهل و "كسروان". أي أنّها أقربُ قريةٍ من بلدان السهل إلى الجبل . يشهدُ على ذلك كثرةُ المنسوبين إليه (الكسرواني) في مختلف الوثائق في أسماء ساكني "الكرك" أثناءَ الفترة التالية للتهجير، ممّن يرِدُ ذكرهم عرَضاً غالباً في وثائق الفترة . ومنهم وأشهرهم الفقيه الجليل الحسن بن يوسف ، الشهير بابن العشرة الكسرواني ، الذي سيكون في المستقبل القريب الباعثَ والمؤسّسَ للنهضة العلميّة التي ستدخلُ بها بلدةُ "الكركُ" التاريخَ من أوسع الأبواب .

أمّا بالنسبة إلى "جزّين وبلادها" ، فإنّنا نقفُ على آثارهم حيث تركوها هم بأنفسهم . وذلك في أسماءِ عددٍ من القُرى في نطاق "جزّين" و "النبطيّة" ، تعدادُها أحدَ عشر قرية هي : "داريّا" ، "صليما" ، "الهلاليّة" ، "القطّين"، "قتاله" ، "كفَر حتّى"، "القرية" ، "القصيبة" ، "صربا" ، "يانوح"، "زغرين" . الدّلالةُ هي في أنّ هذه الأسماء نفسها نجدُها أيضاً في مسرح العمليّات القتاليّة في "كسروان" و "المتن" . هذه مُزاوجةٌ غير عاديّةٍ بحجمِها الكبير . ما من تفسيرٍ لها إلا أنّ النازحين يُعبّرون عن الحنين إلى أوطانهم

المفقودة بإطلاق أسماءِ بلدانهم الفقيدة على القرى التي يُمصّرونها في مهاجرهم . ومن هنا فإنّنا نُرجّحُ بقوّةٍ أن تلك القرى هي ممّا مصّره مهاجرو "كسروان" . ممّا يدخلُ أيضاً في بابِ التأثيرِ السُكّانيّ للنكبة .

ولنُضف إلى ذلك أنّنا نجدُ في "جزّين" ، كما سبق أن وجدنا في "الكرك" ، فقيهاً كسرواني الأصل ، هو أحمد بن إبراهيم الكسرواني ، الذي لا نعرفُ موطنَه الثاني . ولكنّه عاش في "جزّين" بالتأكيد ، حيث درس على الشهيد الأوّل محمد بن مكي الجزّيني ، الذي سنعرفُه بعد قليل باعثاً وقائداً للنهضة في "جبل عامل" .

—

الفصل العاشر

ـــ

من النكبة إلى النهضة

(١) نكبة كسروان بوصفها قطعاً تاريخيّاً

يُمكنُ القولُ بكاملِ الصّدق أنّ اجتياحَ "كسروان" ، وما جرى فيه من صنوف القسوة المُتناهية قتلاً وتهجيراً ، كان قَطْعاً تاريخيّاً كاملاًً بين زمنيَن بكلِّ ما للكلمةِ من معنى . إلى درجة أنّه يُمكنُ القولُ أيضاً أن لاشئَ ممّا بعدَه يُشبهُ ماقبلَه .

حقٌّ أن الغُزاة الصليبيين من قبلُ قد بسطوا سُلطاناً غريباً استلابيّاً على كامل الساحل اللبناني وعلى "جبل عامل" . ولكنّهم لم يرتكبوا فيهما مجازرَ تطهيريّة على نحو ما فعله المماليك ، بذرائعَ واهيةً دبّجها لهم ابنُ تيميّة من عندِه ، مَبنيّة على مجموعةٍ من الأكاذيب والأوهام . ولم يُدمّروا أكبرَ وأحصنَ مدينتيّن فيه . حتى البعثرةَ السُكّانيّةَ الهائلةَ التي أحدثوها ، لم يكُنْ لها ذلك التأثيرُ المُتمادي الذي كان لمثلِها بالتّهجير شبهِ الكاملِ لمن نجا من مذبحة الشيعةِ في "كسروان" وما والاها . بل إنّ بعضَها ربما كان له مفعولٌ إيجابي . ومنه الامتلاءُ السُكاني لـ "جبل عامل" ، وما ترتّبَ عليه غير بعيد من نهضةٍ كبرى ، كان لها من الآثار الطيّبةِ ما يزالُ خيراً وبركةً حتى اليوم . وسيبقى إن شاء الله . وعلى كلِّ حال

فإنّ الصليبيّين هم ، في النهاية ، أعداءٌ غُزاةٌ ، عملوا وِفقَ خطةٍ ترمي للاستيلاءِ على الأرض . ولم يكُنْ لهم شأنٌ ذاتيٌّ مُباشرٌ بالإنسان .

أمّا الذين ارتكبوا جريمة "كسروان" المهولة ، فقد كانوا مجموعةً من القَتَلة ، عملتْ بالقتلِ الذّريعِ دون تمييز ثم بالتهجير شبهِ العامّ على خطةٍ استباقيّةٍ ، ترمي إلى إحباطِ كلِّ تأثيرٍ سياسيٍّ لبعض مُواطنيهم ، كي لا نقول : (إخوانِهم) . لذلك فإنّني لا أجدُ سبباً لكتْمان القول : إن جُرحَ "كسروان" ، خصوصاً إن نحن أخذنا بالاعتبار تداعياتِه المُتوالية التي سنقفُ عليها ، ما يزالُ فاغراً ناغِراً ينضحُ بالدم القاني حتى اليوم . أقولُ هذا ، شرطَ أن لا يُفهمَ من قولي أنّني أُهوّنُ من شأن البلاء الصليبي . بل إن هذا يبقى هو الفاتحة والقاعدة والأساس لكلِّ ما تلاهُ من بلايا .

(٢) من تداعيات النكبة
في النطاق السياسي والاجتماعي

بدأتْ أهمُّ تلك التداعيات بعد انتهاء الأعمال القتاليّة والتهجيرِ مُباشرةً ، بجلبِ جموعٍ كبيرةٍ من التركمان . الذين جرى جمعهُم بسرعةٍ من أنحاءِ "الشام" . ومن ثمَّ نقلُهم إلى المناطقَ الواسعةَ التي شغرتْ بالقتل والتهجير. فأُسكنوا فيها ، بوصفِ

زعمائهم مُتصرفين فيها على نحو الإقطاع . ابتغاءَ علاجِ ما حصل فيها من فراغٍ سُكّانيٍّ .

والتركمانُ قومٌ يرجعون بأُصولِهم إلى سهوب "تركمانستان" في "آسية الوسطى" ، حيث كانوا يُعرفون قبل الإسلام بـ (الغُزّ) . وكانوا في عصر البحث ينتشرون في كافة الأنحاء التي تحكمُها الدولةُ المملوكيّةُ عدا "مصر". ويعملُ عامّتُهُم في تجارة الأغنام التي يستوردونها من وطنهم الأصلي.

والقارئُ الذي يعرفُ أنّه كان من طبائع المماليك الغرامُ بالاستيلاءِ على الإقطاعات ، لَيستغربُ بحقٍّ مَنَّهُم على أولئك الرُّعاة الذين لم يكُن لهم أيُّ شأنٍ سياسيٍّ أو عسكري ، بتلك الرُّقعة الواسعة ذات القيمة الاستراتيجيّة البالغة الأهمّيّة . والحقيقةُ أنّ الأمرَ لم يكُن مَنّاً ولا تكرُّماً ، بل لأنّ تلك الرُّقعة كانت جبليّة خشنة ، لا تصلحُ للاستثمار الزراعي الواسع ، على النحو الإقطاعي الذي يؤتي صاحبَه دخلاً مجّانيّاً دونما تعب . وعليه فقد منحوهم إيّاها ليتدبّروا أمرَهم بإعمارِها . وبذلك يتحقّقُ للدولةِ غرضُها السياسي . الأمني مجّاناً .

لكنَّ التركمان ، الذين خرجوا من "دمشق" باتجاه إقطاعهم الجديد يتقدّمُهُم (أُمراؤهم) في جوٍ احتفالي ، اكتشفوا غير بعيد أنّ تلك النعمة غير المُتوقّعة لم تكُنْ تُناسبُ أُسلوبَ عيشهم . لأنهم

رُعاةُ أغنام ، وهذه لا تجودُ وتُعطي إلا في الأرض السّهليةِ المُعشبَة . فانطلقوا هابطين نحو السواحل و "سهل البقاع" .

كانت هذه فرصتُهم الحقيقيّة التاريخيّة . خصوصاً بعد أن أوكلتْ إليهم الدولةُ حراسةَ ميناء "بيروت" ودروبَ البرّ من ظاهرها إلى حدود عمل "طرابلس" ، وبذلك غدوا جزءاً من جهاز الدولة الأمني . العسكري . ومع الوقت غدوا أُمراءَ حقيقيين ، لهم عسكرُهم وأُسَرَهُم الحاكمة . يبسطون سُلطانَهم على منطقةٍ واسعةٍ ، تشملُ مدينة "طرابلس" والمناطق الهضابيّة التابعة لها ، بالإضافة إلى "كسروان وساحلِها ، وقسماً من "الشُّوف" شرق "بيروت" ، وُصولاً إلى "صيدا" ونِطاقِها في الجنوب ، فضلاً عن قسمٍ من غرب "سهل البقاع" .

والحقيقةُ أنّ ذلك الاختلال السُكّاني المُتمادي ، الذي بدأ بإجلاء أهل "كسروان" عنه ، هو مفتاحُ أساسيٌ من مفاتيح تاريخ وطننا كما لا يزالُ مُستمرّاً فاعلاً . بل هو ، للذين يهتمّون بما يُسمّونه مُنطلقاتِ تاريخِنا ، أحدُ وربما أكبرُ تلك (المُنطلقات) . أفرزَ مُتغيّراتٍ سياسيّةٍ واجتماعيةٍ أساسيّةٍ . كما نتجَ عنه ما يعسُرُ إحصاؤه من الأحداثِ العنيفة الآخذِ بعضُها برقابِ بعض. ومنها مُسلسَلُ الحروب الأهليّة الدّامي الذي مازَ تاريخَنا ، وما يزالُ يتوالى فيما يُشبهُ الإيقاعَ الثابتَ ، بحيث يبدو وكأنّهُ قدرٌ مقدورٌ ، ما من سبيلٍ إلى تفاديه .

ولكنّه كان أيضاً الظّهيرَ السياسي . الاجتماعي لنهضةِ "جبل عامل" العظيمة .

في هذا الإطارالتاريخي يجبُ أن نضعَ ما يقولُهُ مؤرّخون مُحدَثون ، أنّ ظهورَ المسلمين السُّنّة في مُدُن الساحل يعودُ إلى العهد المملوكيّ . وإنْ هم لم يقفوا على ما وقفنا عليه من سياق . والبحثُ من ثمّ طويل . وقفنا منه على موضع الحاجة .

(٣) تبدُّلات البُنية السُكّانيّة للبنان

ما ألمحنا إليه هنا ومن قبلُ من تبدُّلاتٍ سُكّانيّةٍ مُتلاحِقةٍ ، حملتْ إلى المسلمين الشيعة على امتداد الساحل ، نخصُّ بالذكر "صيدا" ونطاقِها و "بيروت" وبعض القُرى المُجاورة لها ، ما رأوا فيه بحقّ تهديداً جدّيّاً لوُجودهم التاريخي . الضغطُ السُّكّانيّ على المُدُن الساحليّة، الذي كان مدعوماً من السُلطة المحليّة التركمانيّة ، وكان يُرضي السُلطةَ المملوكيّةَ المركزيّةَ طبعاًً ، . اتخذَ شكلَ ضغطٍ معنويٍّ بالغِ الشّدّة . وأخذوا مُذ ذاك يختفون من أكثرِ مُدُن الساحل ، لتحلّ محلَّهم جالياتٌ تركمانيّةٌ . بل إنّ بعض مَن لم يختفوا ، بالنزوح طبعاً ، بدأوا يُبدّلون مذهبَهُم . وتلك ظاهرةٌ نجدُها دائماً في هذه الحالة وما يُشبهُها . نراها في الذّرائعيين ، الذين يُقدّمون مصالحَهم الشّخصيّةَ على أي اعتبارٍ آخَر. فيَحلّون ما ينالَهم من الأزمة العامّة بإعلان انضمامِهم إلى الغالب الأقوى . وبما أنّ

العنوانَ الأبرزَ للصراع هنا هو المذهب ، فإنّهم يُعلنون التخلّي عن مذهبِهم إلى مذهبِ الغالِب .

ذلك هو الظّهيرُ السياسيُّ . الاجتماعيُّ الذي انطلقَ منه "جبلُ عامل" إلى نهضته القادمة ، بفضلِ ابنِهِ محمد بن مكّي الجزّيني الشهير بالشهيد الأوّل . حقٌ أنّ "جبل عامل" ، وطنَ الشهيد ، لم يُصَبْ إصابةً مُباشِرةً في ذلك المُسَلسَل ذي الحلقات . لكنّنا نرى أنّ الشيعةَ كانوا الخاسرَ الأكبرَ ، بل الوحيد ، في كلِّ ماجرى منذ نكبةِ "كسروان" . خصوصاً وأنّنا قد عرفنا أنّ قسماً ، بل ربما القسم الأكبر ، ممّن نالهم التهجير قد لجأوا إلى "جزّين" بلد الشهيد وإلى منطقتِها . في حين أنّ قسماً آخرَ لجأ إلى "الكرك" في "سهل البقاع" . وما مثلُ هذه الأزمة مَحَكّاً لمعدِنِ الأُمم والرجال . وما مثلُ هذا المُعترَك ظرفاً لظهور الأبطال . وستتسابقُ البلدان في المستقبل غير البعيد باتجاه النهضة . وستسبقُ "جزينُ" " ، ثم لتلحقَ بها "الكرك" . وفي ذلك دليلٌ على الصلابة في وجه النكبة .

(٤) أعمال الشهيد بوصفها
ردّاً على تداعيات نكبة كسروان

في سبيلِ فهمِ واستيعابِ ما عملَهُ الشهيدُ في النِّطاق النهضويِّ ، فإنّ من اللازم أن نُنوّهَ به أولاً ، أنّ الصفةَ البالغةَ الاستنارةِ في كلِّ أعمالِه إلى حدّ إدهاشِنا ، أنّه لم ينظرْ أبداً إلى

الآخَر، الذي كان السببَ المُباشِر في كلِّ ما نزلَ وينزلُ بقومه من البلايا ، كما يقتضي ردُّ الفعل الطبيعي الغريزي.

وجّهَ الشهيدُ كاملَ جهودِه ، وفقَ خِطّةٍ مُحكَمَةٍ ، إلى رفْعِ درجةِ مُقاومةِ الجسمِ الشيعيّ ، وجعْلهِ منيعاً على الاختراق ومُختلف عوامل التهديم التي كانت عاملةً بسبب الظرف السياسي . الاجتماعي الضّاغط . هذا ، فضلاً عن عاملٍ ذاتيٍ ثقافي بالغِ الأهميّة ، يُمكنُ تلخيصُه بالقول ، أنّ التشيّعَ الذي كان سائداً آنذاك لدى كلِّ مَن بقوا في السواحل و في "جبل عامل" لم يكُن يختلفُ كثيراً عن التشيّع الشّامي الخامد . بسبب غيابِ المُثقّفِ المُنتمي . الموضوعي ، الذي يُمثّلهُ الفقيهُ العاملُ على التّسامي بالثقافة الذّاتيّة لشعبه . حتى وإنْ نحن أخذنا بالاعتبار أعمالَ الرّائد الكراجكي في "صيدا" و "صور" و "طبريّة" ، وأعمالَ ابن أبي روح في "صيدا" ، ثم أعمالَ بعضِ الفقهاءِ القِلّةِ المُتوالين في "جبل عامل" قبل الشهيد. ذلك أنّ أعمالَ هؤلاء جميعاً كانت مُتفرّقةً على مدّةِ قرنين ونصف القرن . كما أنّها كانت محصورةً في أماكن حدوثِها ، لافتقارِها إلى الصفة المُؤسّسيّة . ولذلك كلّه فإنّنا لا نمنحُها من درجةِ التأثير أكثرَ من كونِها عاملَ استمرارٍ ، منعَ قيامَ حالةِ قطْعٍ باتٍّ مع ما بدأهُ الرّائدُ الكراجكي، بحيثُ أنّها مهّدتْ بمجموعِها وبسياقِها المُتصل لأعمالِ الشهيد النّهضويّة .

(٥) جزين رائدة النهضة الثانية
في لبنان

لسنا نملكُ صورةً واضحةً بما فيه الكفاية عمّا كان يجري في "جزّين" بقيادة الشهيد ، بعد أن عاد إليها من مدينة "الحلّة" في "العراق" . حيثُ أمضى فيها بضع سنين منصرفاً إلى الدّراسة ثم التدريس . وحيثُ اكتسبَ سُمعةً طائرةً بوصفه فقيهاً ممتازاً . ولكنّنا نعرفُ أنّه قبل عودته واستقراره في "جزّين" قامَ برحلةٍ واسعةٍ ، زار أثناءَها البلدانَ ذاتَ السّابقة في إعدادِ الفقهاء . ولعلّه كان يرمي من رحلته هذه إلى الاستفادةِ من تجربتِها في هذا النّطاق ، لوضعِ خطّةِ عمله في بلده . ولعلّ سابقةَ إنشاءِ مدرسةٍ في بلده هي ممّا استفاده من مُلاحظاتِه أثناء تلك الرحلة .

مهما يكُن ، فالظاهرُ أنّ من أوائلِ أعمالِه في "جزّين" أن أنشأ مدرسةً كبيرةً ، هي المدرسةُ الثانية في التاريخ الثقافي في "لبنان" ، بعد "دار الحكمة" في "طرابلس" . كما استحضرَ معه من "الحلّةِ" ثلاثةَ فقهاء عراقيين من أفاضل تلامذته ، ابتغاءَ مُساعدته فيما كان يُخطّطُ له ويعم.

ماعتّمتْ مدرسةُ "جزّين" أن غدتْ تعجُّ بالطلاّب القادمين من مُختلف أنحاء "جبل عامل" وسهل "البقاع" . بل إن بعضَهم أتى من "سوريّة" و"العراق" و "إيران". تجذُبُهم سُمعةُ الشهيد المُدوّية .

ودائماً كانت الدّراسةُ على معارف الأساتذة والشيوخ تشريفاً يسعى إليه الطلاّبُ الطامحون .

المُهمّ أنّ هذا الحِراك المُتدرّج ، ابتداءً من إعدادِ الشهيدِ نفسَهُ ، ثم جولتِهِ الواسعة على البلدان ذات السابقة والتجربة بإعدادِ الفقهاء ، ثم استحضارِ أُولئك الفقهاء الثلاثة معه ، بالإضافة إلى مُبادرتِهِ الرّائدة بإنشاءِ مدرسة ، . كلُّ ذلك يدلُّ بما لاريبَ فيه على أنّه كان منذ البداية يضعُ الخِطَطَ لِما سينهمكُ به بعد عودته إلى "جزين" . ثم أنّ الإقبالَ الذي لقيتهُ مدرستُهُ لّيدلُّ على أنّه غرسَ زرعَه في أرضٍ خصبةٍ ومحلٍّ قابلٍ . هكذا اجتمعتْ عناصرُ النهضةِ القادمةِ : القائدُ الذي يُحسِنُ التشخيصَ والرؤيةَ والتخطيطَ والعملَ ، ووسائلُ العمل ، والمجتمعُ المأزومُ الذي تقبّلَ أعمالَهُ بقَبولٍ حسَن .

من الواضح جدّاً عند مَن يتتبّعُ هذا السّياق ، أنّ الغرضَ النّهائيَّ للشهيد من وراءِ حِراكِهِ كان إيجادَ النُّخبةِ ، التي سيكونُ عليها بإعدادِها الدقيق وبانتشارِها المَدروس أن تتولّى زمامَ قيادةِ شعبه وتوجيهَه وتنظيمَه . هكذا انتشرَ الفقهاءُ من تلاميذِ مدرسة "جزّين" في "جبل عامل" وفي السواحل حتى "طرابلس" . بعد أن زوّدهم شيخُهُم بأفكاره الفقهيّةِ السبّاقة ، التي تمنحهُم صلاحيّاتٍ واسعةٍ في الفتوى وفضِّ الخصومات وجبايةِ الأخماس. ومن ثمّ تسديدُها إلى جهةٍ مركزيّةٍ ، ليجري الإنفاقُ منها بإشرافهِ ، حسبَ ما

يقتضيهِ العملُ في النّطاقِ العامّ . وهذه الآليّةُ في العمل راكمَ التشيّعُ خبراتٍ طويلةٍ عليها منذ أيّام الأئمةِ (عليهم السلام) .

من المفهومِ جدّاً أن ترى السُلطةُ السياسيّةُ في هذا تهديداً حقيقيّاً لها ، لأنّهُ على الأقلّ يُنشيءُ سُلطةً مُوازيةً لسُلطتِها. خصوصاً بعد أن نهضَ الشيعةُ بحركةٍ سياسيّةٍ شعبيّةٍ عارمةٍ ، امتدّتْ من الساحل في "طرابلس" و"بيروت" حتى أعالي "جبل عامل" ، اعتراضاً على ما ينالُهم من سياسةِ الدولة . كان من حجمِهِ وشدّتِهِ أنّها اجتنبتْ اتخاذَ أي إجراءٍ عمليٍّ في مقابله . وإنّما اكتفتْ بإصدارِ بيانٍ سياسيٍّ (توقيع) ، ضمّنتهُ صنوفَ التهديدِ والوعيد . وهذا دليلُ عجزٍ ، لا يأتلفُ مع ما نعرفُهُ من مِزاج العسكر المملوكي ، الذي لم يعرفْ في كلِّ تاريخه علاجاً لمشكلاته إلا بحَدِّ السيف .

لذلك فإنّهُ انتظرَ حتى رأى وضعَ الشهيد الداخلي يهتزُّ ، تحت وطأةِ ظهورِ حركةٍ داخليّةٍ اعتراضيّةٍ على مشروعه .أبطالُها بعضُ مَن رأوا فيه ما يُخلّفهُم وراءَه ، ويُهدّدُ مصالحَهُم في الصميم . فألقتْ عليه القبضَ وساقتهُ إلى "دمشق". حيثُ حُبس مدّةَ سنةٍ في قلعتِها . كانت السُلطةُ أثناءَها تعمل جاهدةً على تدبير مُحاكمةٌ مُهلكةٍ له . حكمتْ عليه بالقتل . فقُتل بالسيف في رحبة قلعتِها .

(٦) مشروع الشهيد النهضوي

يستمرُّ من بعده

من الواضحِ أنّ السُلطةَ قد أرادت بجريمتِها في حقّ هذا العظيم أن تُسكتَه ، ثم أنْ تُعيدَ عقاربَ الساعة إلى الوراء ، ويا لبُعد هذا المطلب .

والحقُّ أن الفضلَ في استمرار مشروع الشهيد من بعده ، يرجعُ إلى عددٍ من أفاضل تلامذته ، تابعوا العملَ على مشروعه أثناءَ سَجنه الطويل . وكان هو يتواصلُ معهم من مَحبسه حاثّاً إيّاهم على العمل . ولعلّ حبسَه تلك المُدّة الطويلة كانت من محاسنِ التدبيرِ الرّبّاني . حيثُ بقي تلاميذُهُ مُعلّقي الأمل بنجاته ، كما حصلَ بالفعل من قبل ربما غير مرّة . ولو انّها بادرتْ إلى قتلهِ على الفور ، لربما انهارَ كلُّ شيءٍ ، كما انهارتْ قبلَ نصف قرن حركةُ الفقيه ابنُ أبي الغيث البخاري في "مجدل سِلِم" . التي عملتْ على ما يُشبهُ مشروع الشهيد . ولكنّها قُمعتْ على يد السُّلطة المملوكيّة.

هكذا استمرّ مشروعُ الشهيد عاملاً من بعده ، وكأنّهُ مايزالُ يتحرّكُ بقيادته الباهرة . بل إنّ مدرسةَ "جزّين" أنجبتْ من بعده عدداً من المراكز العلميّة في "جبلَ عامل" . ثم اجتازته عابرةً ممرّ نهر "الليطاني"، وُصولاً إلى "الكرك" في وسطِ "سهل البقاع" . توالتْ حمْلَ المِشعلِ الذي أوقده . ثم انداحتْ إلى البعيد نحو "إيران" الصفويّة وبعضِ مناطق "الهند". وفي كلِّ ذلك دليلٌ ولا أسطعُ على

أصالةِ مشروعِ الشهيدِ كفكرةٍ وباعث ، وعلى صوابِ منهجه كطريقٍ مُوصِل .

وهكذا خطا الشهيدُ ببلدِهِ وقومِهِ الخطوةَ التي لا عودَ عنها : اسّسَ حركةً علميّةً مُستقلّةً ، مُتصلةً بأعماقِ الثقافةِ الخاصّةِ . بدأتْ فوراً تُعيدُ إنتاجَ نفسِها ، بإنتاجَ مُثقّفين عُضويّين . اتجهوا فوراً إلى سُوحِ العمل في مُختلفِ الميادين: فكريّةً واجتماعيّةً وسياسيّة . وبذلك منحَ البُنيةَ الثقافيّةَ الخاصّةَ ، التي كانت في حالةِ تحدٍّ وُجوديٍّ وتحفُّزٍ لبناءِ الذّاتيّة ، فكرَها السّياسي الخاصّ بها . فزوّدها برؤيةٍ ، ووضعَ أمامَها هدفاً وإنْ يكُن بعيداً . وبذلك أغلقَ إلى الأبد الهُوّةَ التي ظلّتْ فاغرةً زُهاءَ الخمسة قرون من الاستلاب والعجز عن الانطلاق . ولم يعُدْ في طوق أحدٍ أن ينتزعَ منها هذا المكسب التاريخي .

إن تكُنْ حركةُ الشهيد قد فشلتْ في أوانِها فشلاً شخصيّاً وآنيّاً ، بالنّظرِ إلى أنّها انتهتْ بقتلِ البطل . فإنّها نجحتْ نجاحاً تاريخيّاً باهراً نجاحَ الدعواتِ الكُبرى ، التي تنتهي غالباً بمأساة . لكنّ الزمنَ وحدَه يكشفُ أنّ قتلَ البطل كان أشبهَ بتفتُّتِ البذرةِ في ظُلمةِ الأرض قبل أن تخرجَ إلى الضوءِ لتغدو دوحةً باسقة : موتاً آنيّاً شخصيّاً، وحياةً مُستقبلةً جماعيّة .

فعلى الرَّغم من النهايةِ الفاجعةِ لباعثِ النهضة ، فإنّها استمرّتْ وانتشرتْ مراكزُها من بعدِه . بحيثُ جعلتْ من وطنهِ "جبل

عامل" ومداهُ الحيويّ الثقافي في بعض "سهل البقاع" : "مشغرة" و "الكرك" ، لمُدّةٍ تزيدُ قليلاً على القرنِ ونصفِ القرن ، أكثرَ المناطقِ حيويّةً فكريّةً في كلّ العالَم الإسلاميّ من أدناه إلى أقصاه . أنتجَ علماؤهُ أثناءَها مكتبةً كاملةً في كلِّ علمٍ وفنٍّ . ضاعَ أكثرُها من أسفٍ في كوارثِ الأيّامِ القادمة . لكنّها فعلتْ فعلَها في أوانِها، ثم أنّ القليلَ الذي بقي منها ومن إبداعاتِها ما يزالُ موضعَ العنايةِ والتأثيرِ والعملِ حتى اليوم .

وعلى الرَّغم من أنّ المماليكَ ارتكبوا بحقّ شيعةِ "لبنان"جريمتيَن مهولتيَن ، بقصدِ إحباطِهم سياسيّاً وفكريّاً : اجتياحَ "كسروان" وقتلَ بطلِ النهضة ، فإنّهم تركوا النهضةَ ورجالَها يعملون بكاملِ الحُريّةِ كلّ تلك المُدّةِ الطويلةِ . وما ذاك إلا لأنّهم كانوا طبقةً عسكريّةً أجنبيّةً غريبةً ، ينحصرُ همُّها بحراسةِ امتيازَاتِها الواسعة . ولا يُلقون بالاً ، بحُكمِ غُربَتِهم ، إلى الثقافةِ وشُؤونِها . كانوا جنوداً جاهلين ، أكثرُهم لا يُحسنُ العربيّةَ إلا لماماً . لذلك فإنّهم تركوا شؤونَ الثقافةِ وبلبالِها إلى أهلِها . ما لَم تقترب أو يقتربوا اقتراباً خطراً من الحُدودِ السياسيّةِ الحَرِجَة ، المحروسةِ منهم بكاملِ اليقَظَةِ ، كما فعلَ الشهيدُ اضطراراً . لأنّ حِراكَهُ قد حصلَ تحت وطأةِ وضعٍ سياسيٍّ ضاغطٍ ، هدّدَ وجودَ قومِهِ في الصميم . والجوابُ على قدْرِ السؤال ، والعملُ على قدْرِ ما اقتضاه .

وممّا يجدرُ بنا التنويهُ به في ختامِ هذا الفصل . أنّ الصّيتَ العريض الذي يتمتّعُ به الشهيدُ حتى اليوم بين الناسِ في "جبل عامل" ، بل في كلِّ العالَمِ الشيعيّ قاطبةً ، ما هو إلا صدىً يخترقُ القرونَ عن الوشيجةِ المتينةِ بين البطل وبين شعبهِ المُطوّقِ بفضله . وأيضاً بين الذين تأثّروا بالنهضةِ التي أطلقها بدرجةٍ أو بأُخرى بعد أن انداحت في الأقطار، ممّن أشرنا إليهم قبل قليل. وهو بذلك يعكسُ فهمَ الناس الصّادق والعميق لإنجازاتِه الباهرة ، بما هو أفضلُ بكثير ، كثيرٍ جدّاً ، ممّا تعكسُهُ التسجيلاتُ الهزيلةُ التي كتبها على سيرتِه مؤلفون ، ومنهم بعض تلاميذِه . وذلك أمرٌ طبيعيٌّ جدّاً ، لِما هو معلومٌ من صعوبةِ رُؤيةِ أبعادِ حَدَثٍ مهما يكُن جَلَلاً على مَن هو في داخله .

—

الفصل الحادي عشر

—

ليلٌ عثمانيٌّ طويل

(١) لبنان يُدخل بالفتح في حوزة الدولة العثمانيّة

في السنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م دخل "لبنان" ، بدخولِ كافّةِ أقطار "الشام" ، في حوزةِ العثمانيين. الأمرُ الذي ينبغي اعتباره تبدلاً جذريّاً في مناخه السياسي بالقياس إلى الحقبة المملوكيّة ، لِما ما بين الدولتين من اختلافٍ في الذات وفي السياسة . فانهدمَ فيه نظامٌ ليقومَ على أنقاضه نظامٌ مُختلف تماماً في كل شيءٍ تقريباً .

العثمانيّون وكلُّ الشعوب الطورخانيّة ، خلافاً للمماليك الذين قلنا عليهم ما يكفي قبل قليل ، حملوا من تجربتهم التاريخيّة البائسة رؤيةً ضيّقةً للإسلام ، محصورةً ومُحاصرةً بالمذهب الوحيد الذي عرفوه ، أعني المذهب الحنفي . ممّا جعل الدولةَ عديمةَ الخبرة بالتعامُل الإيجابي مع مجتمعٍ مُتعدّد المذاهب . بان أثرُهُ بعد أن اكتسبتْ وضعاً امبراطوريّاً بضمّ "مصر" و"الشام" إليها . حيث هذا الأخيرُ خصوصاً مُركّبٌ من فسيفساء فيها كلُّ الألوان الدينيّة والمذهبيّة التاريخيّة الإسلاميّة تقريباً .

هذا بالإضافة إلى أنّ استيلاءَهم على هذين القطرين أنهى صراعاً مكتوماً بين القوتين الإسلاميتين الصاعدتين ، العثمانيّة والصفويّة . فرضَ على السلطان سليم أن لا يُوجّهَ جيشه غرباً باتجاه "الشام" إلا بعد أن قضى قضاءً شبهَ مُبرَمٍ على الجماعات الشيعيّة المُتكاثرة في "الأناضول" . ضارباً عرضَ الحائطِ بعلاقتِها التاريخيّة مع أسلافه ، منذ أن كانوا مُجرّدَ إمارةٍ صغيرةٍ من إمارات الغُزاة التي قامت على حدود ما بقي من الدولة البيزطيّة . وكان أولئك الذين نظّم المذابحَ المهولةَ لهم من أعقاب مَن ساهموا مُساهمةً جُلّى بصعود دولته من إمارةٍ صغيرةٍ ، انتهاءً بفتح "القسطنطينيّة" . لا لشيْ إلا لأنهم من مذهب منافسيه الصفويين . وإلا أيضاً بعد أن أوقع هزيمةً ساحقةً بالشاه إسماعيل الأول في معركة "جاليدران" عند بُحيرة "وان" واحتلّ عاصمته "تبريز". لكن ليتراجع عنها بسرعة ، لأن غرضه الحقيقي كان مُتعلّقاً برقعة المماليك الشاسعة . وما رمى من وراء القضاء على الشيعة في مملكته ومن كَسْر شوكة الشاه إسماعيل إلا إلى الانفراد بالغنيمة .

تلك العناصر، ما كان منها من شؤون التجربة والخبرة التاريخيّة ، وما كان منها من أغراض السياسة وبلبالها ، هي ماصنع مُركّبَ السياسة العثمانيّة تجاه أتباعِ الأديان والمذاهب من رعيّتها . ومنها طبعاً سياستهم تجاه سكان ما سيُصبح في مستقبل الأيام الآتية "لبنان" .

(٢) الآثار المُباشرة للمذهب السياسي العثماني

من أوّل ما نُلاحظه من آثار الحكم العثماني الجديد في "لبنان" اختفاءُ أكبرأُسرتين شيعيّتيَن حاكمتيَن فجأةً من مسرح الأحداث. هما بنو الحنش التي كان منها أيامَ المماليك مُقدّمَ العشير وحاكم "بيروت" و "صيدا" و "سهل البقاع" . وبنو بشارة أعرق وأقوى أُمراء "جبل عامل" . اختفت الأُسرتان فلم نعُد نسمعُ لهما حِسّاً ولا نجِدُ لهما ذكراً ، دون أن يقولَ أحدٌ كيف ولماذا . على أنّه ما من شكٍ في أنّ ذلك لم يحصل بنفسه ، بل بفعلِ فاعلٍ وقوّةٍ قاهرة . وليس في الميدان ، ممّن يملكُ الفعلَ والقوّةَ محلّيّاً ، إلا السُلطةُ الجديدة . ممّا يبعثُ على الظنّ أنّهم أو بعضَهم إنما اختفوا نتيجةَ حروبٍ وتصفياتٍ منهجيّةٍ مقصودةٍ . وليها رجلُ العثمانيين القوي في "الشام"، ثم المُنقلبُ عليهم فيما بعد، جان بردي الغزالي . حصل ذلك في حين أنّ الأُسراتِ الحاكمةَ من غير الشيعة بقيت على مكانتِها : بني عسّاف وبني سيفا التركمانيّتيَن في الساحل ، وبني معن في "الشوف" .

ذلك أنّ الدولةَ العثمانيّةَ اعتمدت تصنيفاً عموديّاً غريباً لرعاياها، لا يأخذ في الاعتبار إطلاقاً صفتهم كمواطنين أو رعايا . سمّته نظامَ المِلّة . قدّمَ الدينَ والمذهبَ هُويّةً وحيدةً جامعةً . ملّةُ الإسلام هي حصراً لأتباع المذاهب السُنيّة الأربعة . مع امتيازاتٍ خاصّةٍ لأتباع المذهب الحنفي ، ومن ذلك أنّ منهم حصراً أيضاً أربابُ الوظائف الدينيّة . وملّة الأروام للمسيحيين أيّاً يكن مذهبهم أو

قوميّتهم . يخضعون حيث هم لقانونٍ واحدٍ تلتزمُ به الدولةُ تجاههم ، ولرئيسٍ واحد تعترف به وتحميه كما تحمي رعاياه . أمّا كلُّ مَن هم خارج هذا التصنيف ، ومنهم الشيعة ، فما من اعتبارٍ لهم ، ولا اعترافٍ بوجودهم بوصفهم رعايا ، فضلاً عن أدنى إشارةٍ إلى حقوقهم .

من الواضح أنّ هذا النظام هو أبعدُ ما يكونُ عن السياسة الحكيمة وفنّ الحُكم في أدنى أشكالِهما وأكثرها وَضاعةً . ولا يُيسّر للدولة إدارةَ شؤون إمبراطوريتها الشاسعة ، بما فيها من مجموعاتٍ بشريّة تتباين من حيث العرق والدين والمذهب . بل يسُدُّ عليها كلَّ بابٍ لإمكانيّة التعامل المُريح مع شِيعٍ كثيرة ، صنّفتهُم هي من وجهة نظرها خارجين وهراطقة ينبغي تطهيرُ الأرض منهم . كثيراً ماتفنّنت في إنزال صنوف الاضطهاد الجماعي وتنظيم المذابح بهم وتدمير مناطقهم ونهب ممتلكاتهم من دون أدنى مُسوّغ . ممّا كان السببَ المُباشر في سلسلةٍ طويلةٍ من الفتن والقلاقل والعصيان . كانت الدولةُ تردُّ عليها بالحملات العسكريّة . فيتصدّى لها الضحايا بما تحت أيديهم ، أو يردّون عليها بدورهم بأعمالٍ انتقاميّة . هكذا كان هذا النظام البائس يضعُ الدولةَ في موضع الخصم الصريح لقسمٍ من مواطنيها . ويُساهم بالنتيجة في إنهاكها وإضاعة مواردها ، دون أي نفعٍ في المقابل .

(٣) لبنان تحت نظام المِلَل

هذا الترميز غير المُتكافئ للمجتمع ، ساقَ باتجاه فرز مكوّناته إلى مجموعاتٍ متباينة في الحقوق . بل إنّ بعضَها محرومٌ من كلّ حق . هناك مَن هم من ملّة الدولة المتمتّعون بعطفها ورعايتها ، هم حصراً أهل السُّنّة في مراكز الحُكم "طرابلس" و"بيروت" و "صيدا". إلى جانبهم النصارى في الجبال المتروكين لمصيرهم دون أن ينالهم كبير سوءٍ منها ، مُراعاةً لجانب الدول الغربيّة . أمّا الدروز فقد تركوا أمرَ علاقتهم بالدولة إلى أُمرائهم السُّنّة من بني معن ثم من بني شهاب. وهذا من فنّ البقاءِ الذي برعوا فيه ، ترفده خبراتٌ تاريخيّة مُزمنة ونظامٌ فكريٌّ وأخلاقيٌّ راسخٌ ومُستوعَبٌ استيعاباً ممتازاً من الصغير والكبير ، سُداهُ ولُحمته شعار (إحفظ رأسك) .

وحدهم الشيعة ، وهم أكثرُ سكّان "لبنان" آنذاك ، بقوا خارجَ كل الاعتبارات والتعريفات النّاظمة لعلاقة الدولة العثمانيّة برعيّتها ، ما كان منها مبدئيّاً / دينيّاً وما كان منها سياسيّاً . بل أنّهم تلقّوا نذيراً صريحاً بما ينتظرهم على يد السلطان سليم فاتح "الشام" . ذلك أنّه ما أن دخل "حلب" حتى بادر إلى تنظيم مذبحةٍ مهولةٍ ، ثنّى بها على مذبحة "الأناضول" قبل بضع سنين ، راح ضحيتها عشراتُ الألوف فيما يُقال من البقيّة الباقية من الشيعة فيها ، الذين يعودُ إلى أسلافهم الفضلُ في بناء مجد "حلب" الوحيد في التاريخ . وانزوى مَن نجا منهم في قرية "نُبُّل" المجاورة لـ "حلب" وفي قرية "الفوعة" في قضاء "إدلِب" ، حيث ما يزالون . وما من ريبٍ في أنّ الأنباءَ الرهيبةَ قد

وصلت إلى مسامع الشيعة اللبنانيين تُسابقُ حركةَ السلطان الجديد . وما من ريبٍ أيضاً في أنّهم قبعوا في مناطقهم يُعدّون ويستعدّون للأيام السوداء الآتية . ثم ما من ريبٍ في أنّ اختفاءَ أُسرتي بني بشارة وبني الحنش قد حصل من ضمن سياسة الدولة الجديدة القاضية بمُلاحقة الشيعة أينما كانوا، بوصفهم أعداءَ للدولة وملّتها ، لا لشيءٍ إلا لأنهم والصفويين من مذهبٍ واحد . ومن هنا فقد لخّصت الأدبيّاتُ العثمانيّةُ الإنشائيّةُ موقفَ الدولة هذا باصطناعِ نمطٍ من التماهي بين المُقاتلين الشيعة والعسكرالصفوي ، بدأبها على تسميةِ شيعة "لبنان" في غير نصٍ رسميّ بـ(القِزِلباش). وهو اللقب الساخر الذي نبزَ به العثمانيّون الجُندَ الصفوي . على الرغم من أنّ الشيعة ربما لم يكونوا قد سمعوا في جبالهم لا بالصفويين ولا بعسكرهم ، فضلاً عن أن يكونوا قد أقاموا أيَّ شكلٍ من أشكال التواصلِ معهم .

وبالرغم من أنّ السببَ الحقيقي لجرائم السلطان سليم بحقّ الشيعة هو ما قلناه، فإنّه حرصَ دائماً على إخفاء حقيقة مقاصدِه بفتاوى فقهائه ، الذين لم يُخيّبوا رجاءَه. فأصدروا أعنفَ الفتاوى بوجوب قتل الشيعة ومنها فتوى كمال باشا شيخ الإسلام وابن عابدين الحنفي ، وأعنفُها فتوى نوح الحنفي الشهيرة بحق شيعة "حلب"، التي قضت بقتل "هؤلاء الأشرار الكُفّار تابوا أم لم يتوبوا" .

(٤) السياسة العثمانيّة تبدأُ سلسلةً

من المتغيّرات السياسيّة والاجتماعيّة

إنّ حالةَ أولئك الشيعة المسكونين بالرعب ، كانت بمثابة البادئ الذي أطلقَ سلسلةً مترابطةً من المتغيّرات الاجتماعيّة والسياسيّة المُتوقّعةَ وغير المُتوقّعة ، كانوا هم مادّتَها وصانعيها . وكان من أكثرِها أهميّةً وأبعدِها أثراً على الصعيد الاجتماعي انطلاقُ حركةٍ سُكّانيّةٍ صامتةٍ من السواحل و"سهل البقاع" باتجاه "جبل لبنان" ، طمعاً بالحصانة التي توفّرها الجبال لقاطنيها . وسعياً إلى حماية أنفسهم فلا يكون مصيرُهم كمصيرِ إخوانهم في "حلب" . والظاهرُ أنّ هذه الحركة البالغة الأهميّة بتراكمها كانت أشبهَ بالتسلُّل بمجموعاتٍ صغيرة ، حيث ربُّ الأُسرة أو عدّة أُسرات تجمعُها القرابة أو الجوار تتخذُ قرارَ الانتقال بسرعة إلى الجبل مع اقتراب العسكر العثماني القادم من الشمال . خصوصاً وأنّ الطريقَ لم تنقطع تماماً بين "سهل البقاع" والجبل بعد تهجير الشيعة منه قبل قرنين تقريباً . بل إن بعض الأُسرات أو العشائر كان منها بقايا في مواطنها التاريخيّة ، هم من الذي أُعطتهم الدولةُ المملوكيّةُ أمانها لانعدام خطرهم بعد أن خسر الشيعةُ ثقلَهم السُّكّاني هناك .

وممّا يدلُّ على الحجم الكبير لهذه الحركة بحيث قاربت أو كادت أن تكون نزوحاً جماعيّاً ، أنّ مدينة "بعلبك" التي كانت فيها أقليّةٌ شيعيّةٌ كبيرةٌ فاعلةٌ في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي ، كما حقّقنا فيما فات ، ولا ريب في أنّها نمَتْ واتسعت في القرون

التالية ، . لم يكن فيها أحدٌ منهم في منتصف القرن الحادي عشر/السادس عشر، أي بعد الفتح العثماني بقرن تقريباً . وأنّ الشيعةَ الذين كانوا أقلّيّةً ضئيلةً في الجبل بعد أن أُكرهوا على الهجرة منه قبل قرنين تقريباً ، نراهم وقد أصبحوا فجأةً أكثريّةً حاكمةً بُعيد العثمانيين . بل إنّنا نظنُّ أنّ أُسرة حماده التي صعدتْ سياسيّاً على قاعدة الكتلة الأكثريّة الشيعيّة الناشئة والمُتكاثرة في الجبل ، وحكمته بالقوّة مدّة ثلاثة قرون، هي من جُملة النازحين من "سهل البقاع" حيث استقرّتْ في "جبل لبنان" مع مَن استقرّوا فيه . وهذا يُفسّرُ لنا أيضاً صعودَها المُفاجئ والقويّ ، بأنّها أحسنتْ استغلالَ اللحظةِ لجماعةٍ كبيرةٍ مذعورةٍ مُشتّتةٍ ، كانت في مسيسِ الحاجةِ إلى مَن يُنظّمها ويُوحّدُ قواها لمواجهة الخطر الحقيقي القادم نحوها . فقدّمتْ الأُسرةُ نفسَها قيادةً مُقارِعةً لعدوّها مُقارعةَ الندِ للنّدِّ وأكثر . وتنتزعَ منه السُّلطةَ رغماً عن أنفه ، كبديلٍ وحيدٍ للخضوع والاستكانة . حيث تعرفُ أنّها لن يكونَ لديها أدنى أملٍ بأن تنالَ منه عفواً أو رحمة . وليس مثل هذه المواصفات لحظةً لبروز قيادةٍ تاريخيّة ، إن هي أحسنت الرؤيةَ والعمل . الأمر الذي نجحت فيه هذه الأُسرة نجاحاً تاريخيّاً .

هكذا نبدأُ رؤيةَ كيف أنّ ذهنيّةَ الغطرسة والاغترار وسياسةَ الاستعلاء العثمانيّة قد بدأتْ تنهشُ جسمَ الدولةِ في المنطقة منذ اللحظات الأُولى لكينونتِها . وسنرى في الآتي كيف ساقَ ذلك إلى أن

يغدو "لبنان" مركزَ الاختراق الدائم لاستقرار الدولة واستتبابِ الأُمور فيها إلى آخر لحظة من عمرها .

(٥) العثمانيّون يرتكبون جريمةَ العصر

هناك مثالٌ آخرُ على الذهنيّة والسياسة البائسة نفسها وآثارِها السّيئة . علينا أن نقفَ عنده لِما كان له من تداعياتٍ بعيدة المدى ، ما تزالُ قائمةً وتكبُرُ حتى اليوم . أعني بذلك جريمةَ قتل العالم الجليل زين الدين بن علي الجُباعي الأكثر شُهرةً بلقب "الشهيد الثاني" (ق: ٩٦٥ هـ / ١٥٥٨م) . أعلى فقهاءِ الشيعةِ في "الشام" مكانةً وشأناً في زمانه .

كان قتلُ هذا العالِم الجليل ، بأمرٍ مُباشرٍ من السلطان سليمان القانوني ، جريمةً نكراءَ بقدْر ما هي غبيّة . فهو لم يدخل في الشأن السياسي وبلبالِه ، كما فعل شريكُهُ في لقب الشهيد (الشهيدُ الأوّل) محمد بن مكّي الجزيني من قبل . بل بنى أفضلَ العلاقات من موقع العالِم مع كلِّ المواقع العلميّة الإسلاميّة دون تمييز في "الشام" و "مصر" . ثم زار عاصمةَ الدولة "إستامبول" زيارةً حافلةً ، حيث التقى وحاورَ رجالَ العلمِ والسياسةِ فيها ، ليعود منها حاملاً براءةً بالتدريس في "المدرسة النُّوريّة" في "بعلبك" . ممّا كان سابقةً جيّدة ، قدّمت دليلاً عمليّاً على الفائدة الكبيرةِ الكامنة في سياسة الحوار والانفتاح ، وبعثت الأملَ بأن تبدأَ الدولةُ تتحرّرُ من ذهنيّتِها الضيّقة وسياستِها

العنيفة . وبالفعل جلس في مسجد "بعلبك" ومدرستِها يُدرّس ويُفتي على المذاهب الخمسة ، وتلك سابقةٌ أيضاً لا نعرفُ لها مثيلاً . تلقّاها الناسُ بأحسنِ القبول. ممّا عزّزَ الأملَ بالتغيير نحو الأحسن . وتركَ الشيخَ الجليل في غاية الرّضى عمّا آلتْ إليه مساعيه ، وما بذل في التخطيط والتحضير له سنواتٍ طويلة .

لكنّ الدولةَ من جانبِها لم ترَ في كلّ ذلك إلا أنّه لونٌ من ألوان المُعارضة لسياستها . أغاظها ما لقيَه من قبولٍ عامٍ . ولذلك ألجأته إلى ترك كلِّ ما عمل من أجله والخروجِ من "بعلبك" والعودة إلى "جُباع" . ومع ذلك فإنّ أجهزةِ الدولة المحلّيّة لم تتركه . بل طاردته مُطاردةً عنيدةً مدّة عشر سنوات . كان أثناءَها يتنقلُ خفيةً بين بلدان "جبل عامل" . وسطَ تعاونٍ جماعيٍّ من الناس على تضليل الجلاوزة المُكلّفين بالقبض عليه . وأخيراً خرجَ خفيةً مُتجهاً إلى "مكّة" بنية المُجاورةِ فيها إلى أن يأتيه الأجل. بيدَ أنّ أجهزةَ الدولةِ لاحقتهُ هناك . وقبضتْ عليه في حَرَم الله وأمنه ، ومن ثمّ ساقته مخفوراً إلى "إستامبول" حيث قُتل فوراً بالسيف ، دون أن يُساءَل أو يُوجّهَ إليه أي اتهام .

كان للجريمة صدىً واسعٌ في مختلف أنحاءِ "الشام" و "مصر" بل في العاصمة العثمانيّة نفسِها . لِما كان للشهيد من تقديرٍ عامٍّ في هذه جميعِها . بحيثُ أنّ أجهزةَ الدولة لجأتْ إلى مُحاولة إبعاد وزرِ الجريمةِ عنها. بتدبيج فذلكاتٍ كاذبةً تضعُ مسؤوليّةَ قتله في عنق

فاعلٍ مجهولٍ . زعمتْ أنّها انتقمت منه بقتله . لكنّ الأثرَ الأبعدَ والأوسعَ والأبقى للجريمة حصلَ في وطن الشهيد ، ومنه في "إيران" و "الهند" .

ذلك أنّ الجريمةَ كانت بمثابة إنذارٍ صريحٍ لكلِّ علماء "جبل عامل" ، وأكثرهُم من تلاميذ الشهيد ، بما ينتظرهم على يد العثمانيين . فانطلقوا بالعشراتِ صوبَ "إيران" الصفويّة ، التي كانت في أمسّ الحاجةِ إليهم . وانتشروا في أنحائها يُعلّمون ويُرشدون ويُصنّفون ويُوجهون لفترةٍ الحياةَ العقليّةَ فيها . وبالنتيجة منحوا "إيران" الوَحدةَ العميقةَ التي كانت تفتقرُ إليها ، بعد قرون التشتّت الطويل والدّامي ، الأقوامي المُغطّى بأقنعةٍ مذهبيّة . وما تزالُ حتى اليوم حيث وضعوها . صامدةً للأعاصير الهائلة التي نزلتْ بالعالَم الإسلاميّ كلّه أثناء القرون التالية ، خصوصاً أثناءَ وعقب ما يُسمّى بالحرب العالميّة الأُولى . وأطاحتْ فيما أطاحتْ به بالأمبراطوريّة العثمانيّة الجبّارة نفسِها . كما اتجه قسمٌ منهم إلى أنحاءِ "الهند" ، حيث كان لهم عملٌ مماثلٌ في أهميّته وبقائه . وفي ذلك كلّه درسٌ عميقٌ لمَن يُحسنُ قراءةَ ضروبِ السلوك البشري ودورِها في صناعة التاريخ . ويُميّزُ في هذا السّياق ما بين القمع الغطرسة وبين العمل التغييريّ الهادئ العميق .

(٦) سياسةُ الدولة العثمانيّة
تنقلبُ عليها

بدأت الآثارُ السيئةُ لبِدعةِ نظامِ المِلِ الغبيّة تظهرُ تِباعاً وتكبرُ شيئاً فشيئاً مع الوقت . معاملةُ الدولة رعاياها بوصفهم مِللاً مختلفة باختلافِ دينِها أو مذهبِها . وخصوصاً تصنيفُ المسيحيين منهم ، على اختلافِ مذاهبِهم ، مِلةً واحدةً محرومةً من كلِّ الحقوق تحت عنوان الأروام . وتصنيفُ الشيعةِ وكلّ مَن هم من غير أتباع المذاهب السُّنيّة الأربعة جماعةً بِدعيّةً محرومةً حتى من اسمِ المِلّة ، ليس لها عند الدولة إلا أقسى صنوف القمع الدمويّ والقهر والاستبعاد ، ابتغاءَ إفنائهم أو تشتيتهم على الأقل ، . هذا التصنيف البِدْعي الهمجيّ انتهى مع الوقت إلى نتيجةٍ مُعاكسةٍ تماماً هي عدم اعترافهم هم بها ، وإن اختلفتْ الطريقة . وبذلك انقلبتْ سياسةُ الغطرسةِ للدولةِ عليها .

المسيحيّون بمُختلف مذاهبِهم كسبوا ، بدعمٍ علنيّ وغير محدودٍ من الدُّول الغربيّة ، ما عُرف في القاموس السياسي الدولي باسم الامتيازات الأجنبيّة . وهو عبارةٌ عن مجموعةٍ من المعاهدات والقوانين والأعراف ، انتهتْ إلى أن غدا هؤلاء عمليّاً خارجَ كلِّ سُلطةٍ للدولة العثمانيّة ومؤسّساتِها وأجهزتِها ، مع بقائهم إسميّاً من رعيّتها . فضلاً عن أنّهم يتمتّعون بامتيازاتٍ حقيقيّةٍ كبيرةٍ ، تُعفيهم من كلِّ الواجبات تجاهَها بما فيها الضرائبُ بأنواعِها . بالإضافةِ إلى إعفائهم أو بالأحرى عدم قبولهم أساساً في الخدمة العسكريّة الإلزاميّة. وبذلك غدا وضعُهم أفضلَ بكثيرٍ من وضعِ مَن هم من ملّةِ الدولة المَرعيّي

الجانب منها ، أي مَن هم أتباعُ المذاهب السُّنّيّة الأربعة . حتى الدروز حاولوا أو بالأحرى حاولت "بريطانيا" أن تشملَهم برعايتها وحمايتِها ، بالإضافة إلى مذهبيّيها الحقيقيين البروتستانت ، تحت شعار فذلكةٍ تاريخيّةٍ عجيبةٍ لم تنجح .

وحدهم الشيعةُ في "لبنان" بقوا خارجَ كلِّ التنظيمات . أقلّيّةٌ بالقياس إلى رعايا الدولة إجمالاً ، في وسطٍ مُعادٍ إلى حدِّ السعي إلى الاستئصال . ومُهدّدين صراحةً تهديداً دائماً من قِبَلِها . فضلاً عن أنّهم محرومون من أي حمايةٍ خارجيّةٍ شأنَ مواطنيهم المسيحيين ، تَحِدُّ من يدِ السُلطة ودأبِها على اضطهادهم بكل وسيلة ابتغاءَ إفنائهم وتشتيتهم .

في ظلِّ هذا الوضعِ الحَدّي لم يبقَ لدى هؤلاء إلا خيارٌ وحيدٌ لا ثاني له ، هو الاتكالُ على سواعدهم وسيوفِهم لانتزاع حقّهم في الحياة ونمطٍ من الحريّة والاستقلال انتزاعاً من الدولة التي فرضتْ نفسَها وسياستَها عليهم .

هوذا ما طبعَ علاقةَ الدولةِ العثمانيّةِ بالشيعةِ في "لبنان" بطابعٍ عنيفٍ جدّاً طوالَ فترةِ حكمهم الطويلة. بحيثُ أنّ قمعهَم وإخضاعَهم كان الشُّغلَ الشاغلَ لها . إمّا بواسطة صنائعِها المحلّيين ، وأحياناً على يد عسكرِها هي ، وعلى أعلى مستوىً سياسي . وبذلك غدتْ الأعمالُ القتاليّةُ المُتماديةُ بين الطرفين وما تمخّضتْ عنه ، جزءاً بارزاً من تاريخنا على مدى قرون .

والذي يُحرّكُ أقصى العجب ، لمَن يتأمّلُ في ذلك السياق المُتمادي من العُنف والعُنف المُقابل ، أنّنا لم نرَ الدولةَ تبذلُ من جانبِها أو تستجيبُ لأيِّ مسعىً سياسيٍّ للتخفيف من عدائها المَرَضيّ لهم ، فتتجاوزُ بذلك محنتَها ومحنتَهم معاً . مع أنّها كانت في موقع الفاعل والقادر، ومع أنّها كانت في موقعِ الخاسر سياسيّاً وعملانيّاً كما سنرى في الفصل التالي . باعتبار أنّها هي صاحبةُ المصلحةِ الأُولى في استتبابِ الحُكم . ولأنّ الغايةَ الأُولى والأَولى من الأداء السياسي لأيّ سُلطة هي الحكمُ الهادئ والمُستَتبّ .

–

الفصل الثاني عشر

—

الكيانات الشيعيّة في لبنان

(١) القسمة الإداريّة العثمانيّة للبنان

عشيّة دخول العثمانيين إلى المنطقة كان "لبنان" مقسوماً إداريّاً بين ثلاث نيابات : نيابة "دمشق" ونيابة "طرابلس" ونيابة "صفد" . وكان من أوّل ما عملتهُ الدولةُ العثمانيّةُ بعد الفتح أن قسمته إلى خمس وحدات هي : لواء "طرابلس" ، لواء "الشام" ، ولواء "صفد" ، وكلٌّ من مدينتي "بيروت" و"صيدا" . على خلافٍ بين المؤرّخين في صفة هاتين المدينتيَن بين لواءٍ وقضاء . وعلى كلّ حال فما من ريبٍ في أنّهما كانتا وحدتيَن إداريتيَن مُستقلّتيَن إداريّاً عن الألوية الثلاثة .

من الثابت أنّ هذه التقسيمات لم تبقَ على حالِها ، بل كان يجري تعديلُها بين حينٍ وآخَر. ممّا يُتعبُ المؤرّخون أنفسَهم في مُتابعته وبيان تعديلاته . أمّا بالنسبة إلينا في هذا التأريخ فإنّها لا تهمّنا في قليلٍ ولا كثير. لأنها لا تأخذ بالاعتبار إلا حاجةَ السُلطة إلى بسْطِ نفوذها واستيفاءِ الضرائب وما إلى ذلك . ولا تُولي أدنى عنايةٍ لاعتبارٍ إنسانيٍّ ممّا هو قائمٌ على الأرض. والعمل التأريخيُّ، عند المؤرّخ الانسانيّ ، هو عملٌ وصفيٌّ محضٌ اساساً . ولذلك فإنّه يصرفُ أكثرَ جُهدَه إلى ما هو قائمٌ بالفعل على صعيد البشر

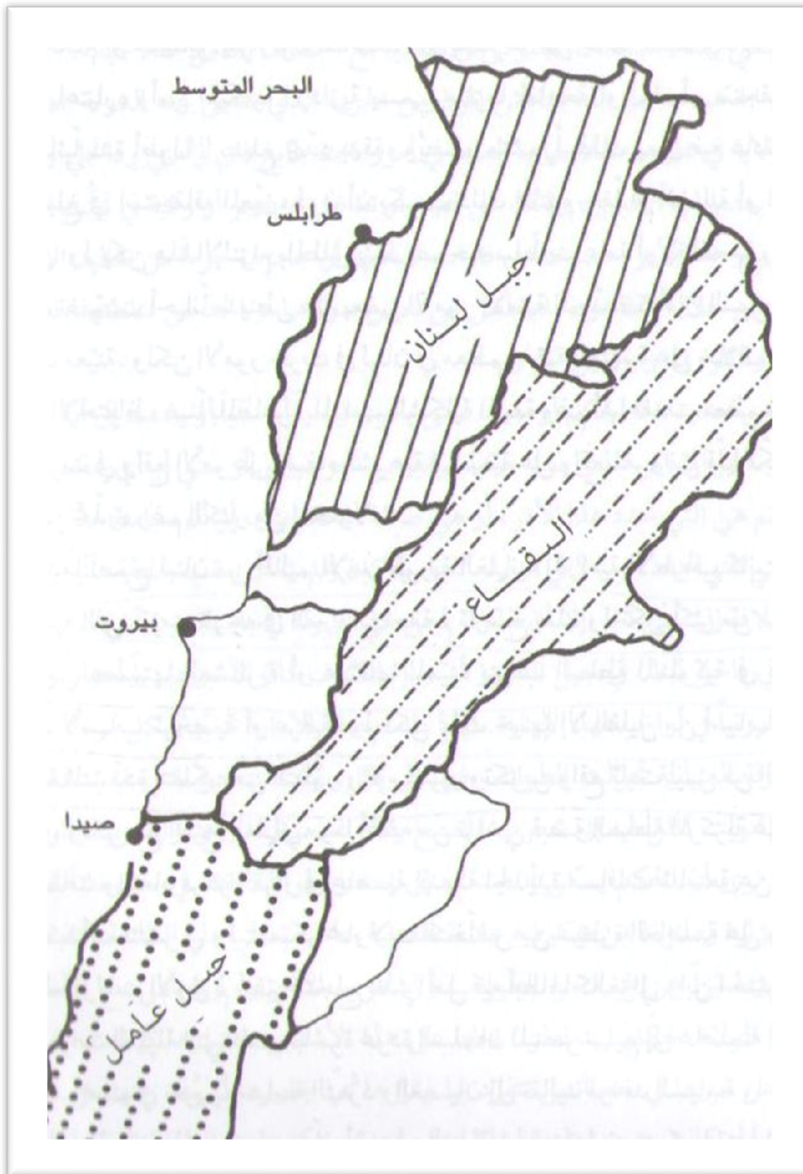
وسلوكِهِم واختياراتِهم لأنفُسهِم . وسنرى على التَوّ أنّ هذا الذي كان "القائمَ بالفعل" مختلفٌ جملةً وتفصيلاً عمّا رسمته الدولة لنفسِها .

(٢) كيانات جديدة تظهرُ في لبنان

لم يكد القرنُ الأوّلُ العثمانيُّ في "الشام" يقتربُ من نهايته حتى كان قد ظهرَ في "لبنان" أربعُ كياناتٍ مُتمايزة . قامت على قاعدةِ رفضِ قسوةِ وعدوانيّةِ نظامِ المِللِ العثمانيّ . وتعبيراً صارخاً عن فشله . وأيضاً عن عملِ الناسِ على تدبير شؤونهم بالاستقلال ما أمكن عن إرادة الدولة وعن مصلحتِها .

أكثرُ هذه الكيانات نَمَتْ وعملتْ حولَ نواةٍ من قوىً مُقاتلةٍ شديدةِ البأس ، تجمعُها رابطةُ النسب بالإضافة إلى وحدة الجغرافيا والقيادة . ممّا يُسمّى عند اهل "الشام" بـ (العشير) أو(العُشْران) . ولكنّها مع الوقت تحوّلتْ إلى كياناتٍ مذهبيّةٍ ، على رأسِها أقوى العصبيّات العشائريّة . ثلاثٌ من هذه الكيانات يغلبُ عليها الشيعة هي بنو الحرفوش في "بعلبك" و"سهل البقاع" البعلبكي ، وبنو حماده في "جبل لبنان" ، وبنو مُنكَر وبنو صعب وعلي الصغير في "جبل عامل". أمّا الرابع ، وهو أصغرُها مساحةً وأقلُّها عديداً فهو في "الشُّوف" و"وادي التيم"، حيث الأغلبيّة للدروز. وتركّزت قوة الدولة وأجهزتُها في المُدُن الساحليّة "طرابلس" و"بيروت" و"صيدا". والكيانات الأربع بحدودِها

تبدو في الخريطة التالية.



قامت الكياناتُ الشيعيّةُ الثلاثةُ حولَ نواةٍ صغيرةٍ من عصبيّةٍ عشيريّة. كانت من القوّة والدّوام أنّها منحت اسمَها لمنطقة حُكمِها . فغدا "جبل لبنان" بلد الحماديين ، و"بعلبك" بلد الحرفوش . أمّا "جبل عامل" فقد سبق رصيفيه في هذا النطاق فحمل اسم بلاد بشارة ، نسبةً إلى أوّل أمير أنجبه هو حسام الدين بشارة . وقد بقي هذا الاسم حيّاً مُتداولاً على الألسنة حتى وقتٍ قريب .

لكنّ ما منحَ هذه الكياناتِ الصلابةَ والثباتَ هو أنّها ، بما لأهلِها من صفةٍ مذهبيّة ، كانت دائماً في عين الخطر. وذلك بالنظر إلى السياسة العثمانيّة الفجّة والقصيرة النظر. وأفترضُ أن القارئ النبيه قد غدا الآن على خُبرٍ بها . وهي التي لم تدعْ لها خياراً سوى رصِّ صفوفِها والاتكال على قوّتِها الذاتيّة ، لكسب ما يمكن كسبُه من استقلالٍ عن الدولة ، التي لم تكُف عن التصريح بأن ليس لهم عندها غير القتل والتشتيت وكل ما يخطر بالبال من صنوف الأذى والاضطهاد .

فيما يلي سنُعرّف بتلك الكيانات الشيعيّة الثلاثة بالقدر الذي يفي بغاية البحث .

(٣) آل الحرفوش أُمراء بعلبك

ترجعُ أعراقُ بني الحرفوش إلى المنطقة الجبليّة شرق"بعلبك" . رصدناهم في نصٍ فريدٍ ولكنّه مؤكّدٌ في منطقة "الجُبّة" و "عسال الورد" (داخل الحدود السوريّة اليوم) في القرن التاسع هـ/ ١٥م ، حيث

كانوا مُقدّميها. ممّا يبعثُ على الظنّ أنهم من أُصولٍ همْدانيّة . لِما نعرفهُ وبيّنّاهُ أنّ هذه المنطقة كانت من المنازل الأساسيّة للمهاجرين الهمْدانيين إلي "لبنان" ، كما أثبتنا فيما فات . وغيابِ أي عاملٍ سُكّانيّ غيرِهِ . وأنّهم كانوا على خصامٍ دائمٍ على المُقدّميّةِ مع أُسرةٍ شيعيّةٍ أُخرى هم بنو العوطة . وأنّ عصبيّةَ الأُسرتين كانت من القوّة والعدد بحيث أنّهما كانتا تقتتلان بمئات الرجال . ويبدو أنّ بني الحرفوش كانت لها الغلبةُ في النهاية على مُنافستِها . المهمُّ أنّ الأُسرتين بدأتا الهبوط باتجاه السهل . بنو العوطة استقروا في الهضاب الشرقيّة المُشرفة عن قُربٍ على "بعلبك" ، حيثُ ما يزالون حتى اليوم. أمّا بنو الحرفوش فقد سلكوا الدروبَ المُلتوية في الأعالي الجنوبيّة ، ليستقرّوا لمدّة في بلدة "سرعين" جنوب "بعلبك". ومنها تابعوا هبوطَهم إليها ليتخذوها قاعدة لإمارتهم التي حكمت المنطقة لعدّة قرون .

ممّا لاريب فيه أن سُلطةَ بني الحرفوش الشيعة قامت على عصبيّةٍ شيعيّة في "بعلبك" وما والاها . وما من أهميّةٍ على الإطلاق للكلامِ المُتسرّع الذي يزعمُ أنّهم لم يكونوا من الشيعة ، أو أنّهم كانوا من الدروز. كما أنّه ما من ريبٍ أيضاً أنّه عندما انهارت دولةُ المماليك أمامَ سطوة الجيش العثماني بقوا هم على إمارتهم في "بعلبك" . ثم أنّ الأمير موسى الحرفوشي ، أوّلُ مَن نعرفُه باسمه من أُمرائهم ، شاركَ جان بردي الغزالي ثورتَه على سادته العثمانيين، مع أنّ هذا

كان قد قضى على بني الحنش وربما بني بشارة أيضاً من قبل . كما خاضَ مع أحد قوّاد الغزالي المُسمّى قانصوه المقرقع معركة "جوسيّه" ضدّ العثمانيين ، على الحدود اللبنانيّة . السورية اليوم ، سنة ٩٢٤هـ /١٥١٨م ، أي بعد الفتح العثماني بسنتيَن . ولكنّنا ما نشكُّ في أنّ هذا لم يكن الأميرَ الأوّلَ من بيته ، بل سبقه غيرُه ممّن ضاعتْ أسماؤهم .

والحقيقة أنّ الأميرَ عليّاً بن موسى (حكم:٩٩٩.٩٤٤هـ /١٥٩٠.١٥٣٧م) هو الذي أرسى دعائمَ بيته في سُدّة الإمارة . انتزعَ أوّلَ أمره الإمارةَ انتزاعاً من السلطات العثمانيّة . ثم أنّه أثناءَ مدّة حكمه الطويلة مضى ، بالدهاء والحنكة والقوّة حين الاقتضاء ، يُملي عليها سياسته إملاءً . بحيث ضمّتْ منطقةُ حكمه ، بالإضافة إلى "بعلبك" ، لواءَ "حمص" ولواءَ "تدمر" . وجعلها جميعها إيالةً مستقلّة عن باقي ولايات "الشام" . بل وفرضَ أن تكونَ وَحدةً إداريّةً تحت حُكمه لا يحقُّ للدولة اقتطاعَ أي جُزءٍ منها ، وأن يُعفى التجّارُ والزعماءُ فيها من الخدمةِ العسكريّة الإلزاميّة . والمُتأمّلُ في عناصر هذه السياسة المفروضة يستنتجُ بسهولةٍ أنّه عملَ على تكوين كيانٍ سياسيٍّ وإداريٍّ بحُكمه يتمتّعُ بحظٍ من الاستقلال الداخلي ، خلافاً لكل الإيالات التابعة للدولة . ولم تتمكن الدولةُ من القضاء عليه إلا غدراً ، بعد أن نزل "دمشق" ضيفاً على واليها محمد بن سنان باشا ، فقبض عليه وأمر بقتله . فضُربت عنقه في

قلعتِها . وحُمل رأسُه إلى "استامبول" .

الأمير علي بن موسى الحرفوشي

بعد الأمير علي المؤسّس تعاقبَ على الحكم في "بعلبك" ثلاثون أميراً حرفوشيّاً عدّاً مدّةَ زُهاء ثلاثة قرونٍ ونصف . أبرزهم الأمير يونس بن حسين (حكم : ١٠١٧.١٠٣٥هـ/١٦٠٨.١٦٢٥م) ، الذي يُذكّرنا ، ببُعد نظره وحنكته السياسيّة وشجاعته ، بجدّه الأمير علي بن موسى . وهو الذي بنى أوّلَ مسجدٍ للشيعة في "بعلبك" . وذلك أمرٌ له دلالتُهُ السياسيّةُ والاجتماعيّةُ غير الخفيّة . كما عملَ على وصلِ شيعة "بعلبك" جغرافيّاً بإخوانهم في "جبل عامل" .

ومع أنّ الدولة كانت في أشدّ الضيق من أُمراء هذه الأُسرة ، فإنّها لم تكُن تجِدُ وسيلةً للتخلّص منها ، بعد العجز عن القضاء عليها بالقوّة العسكريّة ، إلا ببثِّ الفرقةِ وإثارة النزاعات بين أبنائها بمُختلف الوسائل . ممّا يدلُّ على خلوِ المنطقة من أُسرةٍ منافسةٍ يمكنُ أن تكونَ بديلاً عنهم ، مثلما كان الحالُ في بعض المناطق الأُخرى . وآخرُ أُمرائهم هو الأمير خنجر بن ملحم الذي نُفي سنة ١٢٦٧هـ /١٨٥٠م إلى "إستامبول" . وأُعدم شقيقهُ سلمان سنة ١٢٨٣هـ /١٨٦٦م في "دمشق". ويُذكَرُ أيضاً الأمير صالح الحرفوش ، الذي حاول أن يقومَ بنشاطٍ سياسيٍّ لا نعرفُ حجمَه ولا وُجهتَهُ ضدّ العثمانين في أواخر أيامهم . فأعدمهُ جمال باشا شنقاً سنة ١٣٣٥هـ / ١٩١٦م .

أثناء القرون التي حكمتها أُسرةُ آلُ الحرفوش ، عانت "بعلبك" الأمرّين . وذلك بسببٍ من ضعف مناعتِها الطبيعيّة ، واستقرارِها على المُنبسَط الشرقي لـ "سهل البقاع" . ثم بسببِ النزاعاتِ المُتوالية ، التي كانت تنشبُ بين أُمرائها ، بتحريضٍ سافرٍ من رجال الدولة . بحيث أنّها دُمرت تماماً ، وتفرّق أهلُها كلَّ مُتفَرّقٍ عدّة مرات . ولكنّها كانت دائماً تعودُ فتعمُرُ بالقادمين من "عكّار" ، وأكثرُ من القرى الجبليّة الفقيرة جنوبَها . وخصوصاً من قريتَي "بريتال" و "الخريبة". وهذا يُفسّرُ لنا ضعفَ اندماجِها الاجتماعي حتى اليوم ، واختلافِ اللهجات الدّائرة على ألسُن أهالي أحيائِها .

وفي أواخر هذه الفترة خسرتْ "بعلبك" ثروتَها الثمينة من غابات السنديان واللزّاب المُعمّرة ، التي كانت تغطي الهضابَ القريبةَ من المدينة وصولاً إلى الأعالي الشرقيّة وتتجاوزُ الحدودَ السورية كما هي اليوم . وذلك بسببِ افتقار العسكر العثماني إلى الفحم الحجري لتسيير قطاراتِه بين "ريّاق" و "حلب" . فعمد إلى تسخير الأهالي لقطع أشجارِ الغابات ونقلها إلى محطّةِ القطار في المدينة ، ابتغاء استعمالِها وقوداً للقطارات . ممّا كان يقتضي قطعَ كميّات هائلة منها . وهكذا ختمَ العثمانيّون فترةَ احتلالهم بالقضاء على ثروةٍ محلّيّةٍ نمَتْ أثناءَ آلاف السنين .

(٤) آل حماده أُمراء جبل لبنان

تمهيد

قدّمنا في القسم الرابع من الفصل السابق بكلامٍ اقتضاه السياق على الوسط السياسي والاجتماعي الذي برزتْ فيه هذه الأُسرة . وللتذكير نقولُ أنّها قامتْ على قاعدةٍ سياسيّةٍ هي رفضُ نظام المِلّة العثماني وتصنيفه الظالم للناس ، وما أنزله العثمانيّون من مظالم بالشيعة في المنطقة الشاميّة . وعلى قاعدةٍ اجتماعيّةٍ هي ما ترتّبَ على ذلك من نزوحٍ كبير إلى "جبل لبنان" من "بعلبك" و"سهل البقاع" إجمالاً ، وربما من السواحل أيضاً . بحيث استعاد الشيعةُ ما كان لهم من كثافةٍ سُكّانيّةٍ فيه قبل نكبة "كسروان" . وبالمقابل انحسارهم سُكاّنيّاً عن "سهل البقاع" .

(٥)الأُسرة الحماديّةُ ومنطقة حكمِها

حكمتْ هذه الأُسرةُ منطقةً واسعةً ، قلبُها "جبل لبنان" : "كسروان" و"جبيل" و"الكورة" و"البترون" و"المنيطرة" و"جُبّة بشرّي" إلى "الفتوح" في أقصى الجنوب الشرقي للجبل . وامتدتْ حيناً إلى "صافيتا" وجبال العلويين ، في "سوريّة" الحاليّة. كما امتدّتْ مدّةُ حكمها من الرُّبع الأوّل من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ، وربما قبلُ بكثير وِفقاً لِما يقولُهُ بعضُ المؤرّخين ، حتى السنة ١١٧٤هـ/ ١٧٦٠م ، السنة التي طُردوا منها نهائيّاً ، إلى المنافى البعيدة أو إلى "الهرمل" . حيث ما يزالُ أعقابُهم إلى اليوم .

وإنّه وإن يكُنْ حكمُها تحت عنوان الالتزام مبدئيّاً ، الذي يمنحُ المُلتزمَ سُلطاتٍ شبه مُطلقةٍ في حفظ الأمن وجبايةِ الضرائبِ على منطقةِ حُكمه ، فإنّ الأُسرةَ الحماديّةَ كانت تفرضُ التزامَها فرضاً على الدولة . بحكم سيطرتِها المُطلقة على المنطقة دون مُنازعٍ . كان الحاكمُ الحماديُّ يستمدُّ صفتَه وسلطتَه من واقعٍ سُكّاني . سياسي سُداه ولُحمتُه قاعدةٌ بشريّة مُهدّدة في كل لحظةٍ بوجودِها وحاجتها إلى مَن يُنظّم أمنَها . ولذلك فإنّه كان مؤيّداً من الجميع . بمن فيهم من المسيحيين ، الذين كانوا يُعانون مثلَ مُعاناة الشيعة من الحكم العثماني وإن بدرجةٍ أخفَّ وطأةً . وما كانوا أبداً مثلَ بني عسّاف أو بني سيفا في القسم الشمالي من "جبل لبنان" ، أو مثل بني معن ثم بني شهاب في القسم الجنوبي منه ، مُعيّنين بفرمانات تصدرُ من

الدولة ومنها يستمدّون سُلطاتِهم . حتى إذا أُبعدوا لأيّ سبب فقدوا كلَّ ما كان لهم من شأنٍ وسُلطة . كما أنّها كانت تبني سياستَها على أساس أنّها ذات سُلطةٍ عامّةٍ ، لا تقتصر على جباية الضرائب ، ولا تكترث بتنفيذ أوامرالسُلطة العُليا في "استامبول" . ومن هنا ، فإنّ علاقتهم بالدولة كانت تضطربُ بين الالتزام والصِدام . وكثيراً ما كانوا يحتفظون لأنفُسهم بكامل عوائد الضرائب ، ويتحدّون إرادةَ الدولة ، ويُعيّنون مأمورين من قِبَلهم . ومن الواضح أنّ الدولة لو تُركتْ ونفسَها لَما كان لهذه الأُسرة أو لأي زعيمٍ شيعيٍّ وحتى لأي شخصٍ منهم أن يفوزَ منها حتى بأمنه الشخصيّ والعيش بسلام . وذلك نظراً إلى موقفها الحَدّي ، المُعلَن من قِبَلها بعشرات الفتاوى والمراسيم (الفرمانات) ، الذي يقضي بوجوب قتل كل شيعيٍّ لا لذنبٍ جناه ، إنما فقط لأنّه شيعي .

والمُلاحظُ أنّه في الوقت الذي كانت فيه الدولة تشنُّ أو تأمر بشَنّ الحملات العسكريّة عليهم تحت شعار تنفيذ أمرٍ ديني ، كان السُكّان بقيادة هذا الزعيم الحمادي أو ذاك يتفانون في القتال دفاعاً عن أنفسهم وعن أُسراتهم . بوصفهم جميعاً مُستهدَفين للقتل والاستئصال . ممّا يدلُّ على قوّةِ العصبيّةِ التي تشدُّ عُرى هؤلاء الناس بعضهم إلى بعض .

كما أنّ من المُلاحظ أنّ الأوامرَ لقادة الحملات لقتال الشيعة

كانت تنصُّ على أن الهدفَ هو حصراً الاستئصال والإبادة ، وليس إنزالَ العقوبةِ أو الإعادةَ إلى الطاعةِ ، كما يكون شأنُ الدُّول في الأزمات الداخليّة المُشابهة . وفي هذا السبيل كانت الدولةُ تلجأ إلى استخدام كلِّ ما تحت يدِها من وسائل ، بما فيه تدمير القرى ، وإتلاف المحاصيل ، وسبي النساء ، والاستيلاء على قطعان المواشي ، ونهب المُقتنيات . بل وصلَ الأمرُ ، على لسان بعض فقهاء السُلطة ، إلى اعتبار كلِّ من لا يُقاتلهم من عامّة الناس مُهادناً ومُعيناً لهم ومُرتدّاً كافراً ، يستحقُّ أن يلقى المُعاملةَ نفسها . وإلى تحريم التعامل معهم ، واستعمال شيءٍ من إنتاجهم أو عملِ أيديهم . ممّا يدخلُ في باب العقوبات الاقتصاديّة ، كما نقول اليوم .

في هذا الإطار وقع الصّدامُ العسكريُّ الكبيرُ والطويلُ الأمد بين الشيعة إجمالاً في "لبنان" وبين الدولة .

(٦) الأُسرةُ تقودُ الثورة / العصيان الشيعيّ العامّ في لبنان

هل كانت ثورة ؟

إنّما ردّدنا العبارةَ بين كلمتَي الثورةِ والعصيان لأن المُبادرةَ إلى الصّدام أتتْ دائماً من جانب السُلطةِ المحلّيّة . بسبب السياسةِ الاستقلاليّة التي اتّبعها شيوخُ الأُسرة ، بما في ذلك امتناعِ غيرِ واحدٍ منهم عن تسديد جبايات الضرائب المُتراكمة لديهم . وهذا ينتقصُ من صفتِها الثوريّة . ولكن ، من الجهة الأُخرى ، فإن الصِدامَ امتدّ فيما

بعد وانتشرَ ، بحيثُ عمّ المناطق الشيعيّة من "لبنان" كلِّها ، وشاركتْ فيه مجموعاتٌ أُسريّةٌ مُتعدّدةٌ ، وكان للقائمين به المطالبَ نفسَها ، ممّا نتوقّعُ أنّ يكونَ القارئُ الحصيفُ على خُبرٍ بها . وهذا يمنحُها صفةَ ثورةٍ لا ريب فيها .

(٧) بدايةُ الثورة

بدأت أعمالُ الثورةُ سنة ١٠٩٧هـ/١٦٨٥م بهجومٍ شنّه الحماديّون ومعهم مقاتلون من آل الحرفوش ، الذين عرفناهم أُمراءَ "بعلبك" ، ومن آل حَمِيّه . وهي أُسرةٌ كبيرةٌ نذكرها لأولِ مرّة ، ما يزالُ أعقابُها ينزلون بلدة "طاريّا" في "سهل البقاع" إلى الجنوب الغربيّ من "بعلبك". فقتلوا أميرَ "الكورة" واستبدلوه بواحدٍ اختاروه . وقتلوا أبا نادر شيخَ "عكّار" وابنَ أخ الباشا . وهاجموا "كسروان" ، وكبسوا "عشقوت" . وأغاروا على مدينة "طرابلس" ، حيث حرّروا بالقوّةِ أخاً للشيخ الحمادي ، كان قد سلّمه لوالي المدينة ضماناً لتسديد مبلغ الضريبة المُترتّب عليه . فهذه البدايةُ العريضةُ تدلُّ على أنّ دواعي الثورة كانت مُتوفّرةً لدى أغلبِ الشيعة في "بعلبك" ونطاقِها، كما في "جبل لبنان" .

(٨) الثورة تنتصر

وممّا يدلُّ على قوّةِ الثائرين وسطوتِهم ، أن الدولة أمرتْ

الأميرَ أحمد المعني ، مُلتزمَ "الشوف" وما والاه ، بأن يقتصَّ من الثائرين ، وأن يكونَ هو المُتولّي بعدُ على بلادهم . فشنّ الغارةَ بعسكرٍ ضخمٍ على "كسروان" و "جُبّة المنيطره" . ولكنّه لم يُقدم على مَسّ أحدٍ من قادة الثورة بسوء ، كما أنّه لم يقبل التوليةَ على بلادهم . الأمرُ الذي أغضبَ "إستامبول" ، بحيث اتهمته صراحةً بالوُقوف إلى جانبهم . وأدّى إلى عزله وتعيين أحد آل علم الدين ، الأُسرةُ العدوّة اللدودةُ للبيت المَعني . ومن الواضح للقارئ العارف أنّ هذه السياسةَ من الأمير أحمد المعني هي نتيجةُ حساباتٍ سياسيّةٍ دقيقةٍ ، قضتْ بأن ليس من طوقه وبالتالي ليس من مصلحته أن يتورّطَ في نزاعٍ مع القوى الكبيرة التي تقِفُ وراءَ الثورة . وإلا فلو انّه كان لديه أملٌ معقولٌ بأن يفوزَ بالتزامِ مناطقهم الواسعة لَما تردّدَ إطلاقاً في تنفيذ الأوامرالعثمانيّة ، ولَما عرّض نفسَهُ لغضب الدولة ونتائجِه .

بعد ذلك تابعَ الثوّارُ ضغطَهم ، فهاجموا مراكزَها ومصالحَها أينما كانت . وبالنتيجة رضخَ والي "طرابلس" ، ومن ذلك أنّه أفرجَ عن بقيّة الرهائن . وكما جرى غير مرّة ، فقد أُعيدتْ عقودُ "جبيل" و"البترون" و"جُبّة بشرّي" و"الضِّنّيّة" بسُرعة إلى الزعيم الحمادي . وهكذا كسب الثوّارُ الجولةَ الأُولى من الصراع ، واعترفتْ الدولةُ اعترافاً رسميّاً بسُلطتهم على المناطق التي يحكموها .

(٩) الدولةُ تردُّ

لكن ، وكما هو مُتوقّعٌ ، فإن ذلك لا يعني أنّ دولةً بحجمِها وقوّتِها قد خضعت نهائيّاً للثائرين . بل سنرى في حِراكِها التالي أنّها إنّما اتّبعتْ سياسةَ التساهُل كيما يُتاحَ لها أن تُهيءَ وتُجهّزَ قوّاتِها ، لتضربَ الثائرين ضربةً أرادتها قاضية .

لم تمرَّ بضع أسابيع على تلك التسوية حتى حشدتْ الدولةُ كلَّ مَن استطاعت حشْدَه من قوّاتِ صنائعِها المحليين بقيادة باشا "صيدا". واتجه الجميع إلى "بعلبك" ، ليس لأنّها الهدف الرئيس للحملة ، بل لأنها بموقعها المكشوف وسطَ السهل هدفٌ سهلٌ بالقياس إلى جُرود "كسروان" و "جبيل" الوعرة . والظاهرُ أنّها رمَتْ أيضاً بحركتِها هذه إلى كسْر الجناح الحرفوشي ، مُقدّمةً للتفرّغ لقلب الثورة العالقة في الجبال .

والظاهرُ أن أميرَ "بعلبك" آنذاك ، الأمير شديد الحرفوش ،

الأمير شديد الحرفوش (ق:١١٠٤هـ/١٦٩٢)

استوعبَ خطّةَ المُهاجمين . فسارعَ إلى إخلاءِ مواقعه ، وانضمَّ إلى إخوانه في الجبل . وبذلك أحبطَ خطّتَهم ، ومنع الاستفرادَ بقوّاته ، ونقلَ المعركةَ إلى حيث يتمتّعُ المُقاومون بامتيازٍ لوجستيّ عظيم الأهميّة ، هو معرفةِ المسالك الجبليّة الوعرة ، بالإضافةِ إلى تمرُّسهم بالمعارك في مناطقِها .

عندما وصلَ المُهاجمون إلى "بعلبك" وجدوها خاليةً من أهلها الذين التحقوا بالثائرين ، واتجهوا إلى الجُرود استعداداً للمعركة . فأنزلوا بها وبقُراها صنوفَ التدمير والنهب . ثم صعدوا إلى "كسروان" و"جُبيل" ، حيث نظّموا غاراتٍ مُدمّرةٍ بالقُرى والمزارع الخالية . وجعلوا مُعسكرَهم الرئيس في "عين الباطنيّة" قُرب بلدة "أفقا" بـ "المنيطرة" .

في الأثناء كانت المُناوشاتُ عالقةً بين الفريقَين : الثائرون ينصبون الكمائن ، أو يُغيرون على تجمّعات عدوّهم . بينما كانت قوتُهم الرئيسة تُعدُّ وتستعدُّ للمعركة الفاصلة .

(١٠) معركة عين الباطنيّة

بتاريخ ٢٠/١٠/١٦٨٦م/ المُحرّم ١٠٩٩هـ داهموا بغتةً بهجومهم الرئيسي على مُعسكر الأعداء المركزي في"عين الباطنيّة" في "المنيطره"،بقيادة حسين بن سرحال الحمادي.ولم تستمرّ المعركة إلا بضع ساعات، انجلتْ عن هزيمةٍ ساحقةٍ لعسكر الدولة . انهزمَ

على أثرها مُخلّفاً خمسةً وأربعين قتيلاً ، وغنائم وسلاحاً كثيراً . دون أن يفقدَ المُقاتلون الشيعة قتيلاً واحداً .

حسين بن سرحال الحمادي (ق:١١٠٤هـ١٦٩٢م)

هكذا كسبَ الثوّار بالشجاعة وبراعة التخطيط معركةً أُخرى. وانهزم باشا "صيدا" باتجاه "طرابلس" . أمّا واليها المُعيّن ففرّ بعياله إلى "بيروت" . وتفرّق مُقاتلوهم غير النظاميين من دروزٍ وتركمان وأكراد وعُربان كلٌّ إلى دياره . وعلى الصعيد السياسي فقد أرغمت نتيجةُ المعركة الدولةَ على الاعتراف رسميّاً بشرعيّة حكم الشيوخ

الحماديين على مقاطعاتهم : "جبيل" و"الضّنّيّة" و"البترون" و"الكورة". وكذلك الأمير شديد الحرفوشي على "بعلبك" . واستمرّوا بحكم مقاطعاتهم باستقلاليّةٍ شبه تامّةٍ بضع سنين ، بالتحديد حتى السنة ١١٠٤هـ/١٦٩٢م . بما في ذلك الاستيلاء على أموال الضرائب لأنفسهم والامتناع عن تسديدها لخزينة الدولة .

(١١) الحملةُ الكبرى على الثائرين

في السنة ١١٠٣هـ/١٦٩١م بدأت الدولةُ حِراكاً سياسيّاً يرمي إلى بسط سُلطتها على "جبل لبنان" و"بعلبك" . فسلختْ "سهل البقاع" عن ولاية "دمشق" وضمّتهُ إلى ولاية "طرابلس" ، ابتغاءَ وضع كامل مناطق الثائرين تحت أمرِ سُلطةٍ واحدة ، هي سُلطة على باشا والي "طرابلس" ، الصّدرُ الأعظم فيما بعد . واصدرت عدداً من الفرمانات المُوجّهة إلى أُمراء الألوية والوُلاة والقُضاة والملالي ، دعمتها بفتاوى فقهائها ، وكلّها تقضي بلزوم القضاء على مَن سمّتهم "القِزلباش" "الأشقياء" "الرّوافض" . وألغت عقودَ الالتزام التي كانت قد أعطتها لقادة الثوّار . ومنحتها لأنصارِها تحريكاً لهمّتهم بالقتال في قوّاتها التي كانت ماضيةً في إعدادِها . ممّا شكّل بمجموعه تدابير سياسيّة وعسكريّة غير مسبوقة ، خصوصاً بعديدِها المُجتمع من ولايات "دمشق" و"حلب" و"طرابلس" و"صيدا" وألوية "حمص" و"حماة" ، نالت كلّ "لبنان" السياسي كما هو اليوم .

مع بَدء الأعمالِ العسكريّةِ الشّاملةِ لجأ الحماديّون إلى تحييد أُسراتهم ، بأن أرسلوهم باتجاه "العاقورة" . لكنّ عاصفةً ثلجيّةً مُفاجئةً حاصرتهم في أعالي "صِنّين" على ما نُرجّحُ وقضت على عددٍ كبيرٍ منهم . والذين نجحوا منهم في الوصول ، بعد المُعاناة الشديدة ، إلى قرية "الفُرزُل" وسط "سهل البقاع" أدركتهم العساكر وقضتْ على بعضِهم الآخَر.

انتشرت قوّاتُ الحملة في الجبل و"سهل البقاع" الشرقي تُحرقُ القرى وتقتل المدنيين وتسبي النساء وتنهب المواشي وتُدمّرُ كلَّ ماتصلُ إليه يداها . وسقط حسين بن سرحال ، الذي عرفناه من قبلُ قائداً للثورة ، قتيلاً في إحدى المعارك مع عددٍ من أقاربِه .

(١٢) الثورة تستمر، معركة عين قبعل

ومع ذلك ، مع الإعداد العسكري غير المسبوق ، المُقدّرُ حسب غير مصدرٍ بعشرين ألفَ مُقاتل . ومع الخسائر الكبيرة برجال الثورةِ وقيادتِها . ومع التنكيل الجَماعي الذي أنزله العدو بقاعدتِها البشريّة دون تمييز ، قتلاً نالَ حتى المدنيّين غير المُقاتلين ومن نساءٍ وأطفال ، وإفقاراً بالتدمير والإحراق والنهب الذّريع ، . مع ذلك كلّه فإنّ الثورةَ بقيتْ عالقةً وكأنّها لم تفقد شيئاً من عناصر قوّتِها . ممّا يدلُّ على تجذّرِها العميق في قاعدتِها البشريّة ، وأيضاً على انعدام الخياراتِ الأُخرى لديها. ومن ذلك أنّها بعد سنتين تقريباً أنزلتْ هزيمةً

ساحقةً بعسكر أرسلان باشا ، الذي خلفَ علي باشا ، الصّدر الأعظم الآن ، على ولاية "طرابلس" ، وذلك في معركة "عين قبعل" في منطقة "جبيل" .

(١٣)النفير العامّ ضد الثورة

على أثر هذه الهزيمة الفادحة سارعت الدولةُ ، بشخص الصّدر الأعظم علي باشا ، إلى تجهيز حملةٍ كُبرى من عساكر الوُلاة والزعماء المحلّيين، بالإضافة إلى فِرَق الانكشاريّة العثمانيّة . أي أنّه أعلن النفيرَ العامَّ ، وجنّدَ كلَّ قادرٍ على حمل السلاح ، وحشدَ القوّاتِ التابعةَ مباشرةً للدولة . وأسندَ قيادَتَها إلى أرسلان باشا نفسه . ولكن هذا الرجل ، الذي يبدو أنّه كان يعرفُ جيّداً مَن سيُقاتل ، أعلن بعد أن بدأ تحرّكاتِه عجزَه عن القيامَ بهذه المُهمّة الخطيرة . واقترح تعيين قائدٍ عسكريٍّ مُجرّبٍ يتمتّعُ بالخبرة العسكريّة المُناسبة . فأرسل البابُ العالي مرسوماً / فرماناً يوبّخُ فيه أرسلان . ثم سارعَ إلى تعيين الضابط طوسون / طرسن محمد باشا، مُفتّش عام "الأناضول"، على رأس الحملة . ذلك لخبرته العسكريّة وتمرّسه بالحروب ، خصوصاً داخلَ الامبراطوريّة. ومع ذلك فإنّ هذه الحملة تفرّقت أيضاً دون أن تقومَ بأيّ عمل جِدّيٍّ ، بل ودون أسبابٍ مفهومةٍ . وكلُّ ما يُذكَر لها بعض المُناوشات الصغيرة في جنوب "سهل البقاع" . وأُعيدَ قائدُها إلى موقعه السابق . وكان هذا أيضاً مصيرُ الحملة التالية التي

أُسندت قيادتُها إلى والي "مصر" آنذاك ، والي"دمشق" سابقاً إسماعيل باشا .

(١٤) الحملاتُ تتوالى والصمودُ حتى النهاية

ما من فائدةٍ تُذكرُ للقارئ ، بالنظر لخطّة هذا الكتاب ، في إحصاءِ الحملات التي مضت الدولةُ في تنظيمِها حملةً إثرَ حملةٍ للقضاءِ على قوّةِ الشيعة في "جبل لبنان" و"سهل البقاع" . لذلك فإنّنا نُلخّصُ الوضعَ بما يلي :

لقد واجه هؤلاء مُنفردين جحافلَ الامبراطوريّة العثمانيّة وصنائعِها المحلّيين، دون أن تنالَ ولا مرّةً واحدةً من إرادتِهم وصمودِهم ومقاومتِهم . وبالنتيجة عاشوا في مرابعهم حياةً قاسيةً ولا ريب . ولكنّهم مُتمتّعون بكامل الحريّة .

أثناء عقودٍ طويلةٍ من السنين كانوا أثناءَ فصول الصيف يعيشون في أعالي الجبال حياةَ الرُّعاة شبهَ الرُّحّل . أمّا في الشّتاءات الباردة فقد كانوا يهبطون إلى السواحل وسهليّ "الهرمل" و"البقاع" . ومنهم مَن يعمل في الزراعة في الهِضاب والوديان الخصبة . وعندما يُنذَرون بقوّات العدوّ المُتجهة إلى بلادهم ، كانوا يُخلون قراهم ومزارعَهم ، ويُرسلون نساءَهم وأطفالَهم إلى حيث يكونون أكثر أماناً . أمّا الرجالُ فكانوا ينطلقون نحو الأعالي وليس مع كلٍّ منهم إلا سيفَه وبندقيّتَه . وعلى كتفه يُعلّقُ كيساً من الجلد أو القماش فيه الموادُّ

اللازمة لصُنع ذخيرةِ بندقيّتِه ، التي برع في صنعها من موادَّ محلّيّةٍ بسيطة . ليكمنوا بجماعاتٍ صغيرةٍ بانتظارالجيشِ الزّاحفِ . فيُداهمونه حيث هو بغاراتٍ سريعةٍ تُنزلُ به أفدحَ الخسائرَ في الرجال والعتاد . كثيراً ما أدّت إلى إيقاع الهزيمة به وتشتيت صفوفِه وإجباره على التراجع خائباً إلى حيث أتى . حتى إذا تراجع العدوُّ تحت ضغط غاراتِهم رجعوا إلى قُراهم ومزارعَهم ومراعيهم بانتظار الحملة التالية . وهكذا دواليك ، عاماً بعد عام . وعقداً بعد عقد .

على أنّ هذه الحملات لم تكُن تمرّ دون خسائرفي المُقاتلين، وأيضاً خسائرَ فادحةً في البُنية التحتيّة الانتاجيّة والعاملين عليها ، بعضُها باهظ . كان عسكرُ العدو المهزوم كثيراً ما ينتقم بإحراق وتدمير القرى والتنكيل بأهلِها وقطع الأشجار ونهب القطعان وإتلافِ الزُّروع .

في هذا الوضع المُروّع كانت الخسائرُ في الرجال المُقاتلين يبينُ أثرُها في عديدهم المُتناقص بعد كلِّ معركةٍ يخوضونها . ومع ذلك فإن الشيوخَ الحماديين الشيعة استمرّوا ، بعد الفشل الذّريع لحملة والي "مصر" إسماعيل باشا ، على حُكم المناطق الواقعة تحت سيطرتهم وعلى إدارة شؤونها الداخليّة . كما دأبت الدولةُ مُكرَهَةً على إصدار عقود الالتزام القانونيّة التي تعترفُ بهم حُكّاماً في المناطق الواقعة تحت سيطرتهم ، حتى حيث لاتكونُ الغلبةُ السُّكّانيّةُ للشيعة .

لكنّ ما أوصلَ الأُمورَ إلى نهايتِها ليس الحملاتِ العثمانيّة المتوالية فقط ، بل هي بالإضافة أيضاً إلى ما حملته التطوّرات السياسيّة التالية . التي أدخلتْ الدُّولَ الغربيّة في الصورة السياسيّة للمنطقة ، على قاعدة الامتيازات الأجنبيّة وضَعف الدولة المُتافقم . ولكن طبعاً إلى جانب أعمال الدولة العثمانيّة المُتهالكة أيضاً . كان هناك بين الفريقَين ، الدولةُ وصنائعُ الدُّوَل الغربية ، شكلٌ من أشكال التحالُف غير المُعلَن يرمي إلى القضاء على الفاعليّة السياسيّة للشيعة في أنحاء "جبل لبنان" .

هذا الوضع بوجهيه كان أقوى ممّا تُطيقه التشكيلات الاجتماعيّة . القتاليّة للشيعة الحماديين في "جبل لبنان" . على الرُّغم من الشجاعة الفائقة والمهارة القتاليّة وقوّة الاحتمال العجيبة. وخصوصاً في ظلّ انعدامِ كلِّ سندٍ خارجيٍ لهم ، في مُقابل الدّعم السياسي والمالي والتنموي واللوجستي غير المحدود الذي كان مواطنوهم من المسيحيين يتلقّونه من الدُّول والهيئات الغربيّة . والحقيقةُ أنّ كلّ القوى الخارجيّة العاملة في المنطقة كانت تعملُ بدأبٍ ضدَّهم. هكذا كان توالي المعارك العسكريّة ، بالإضافةِ إلى ثبات الأداء السياسيّ الغربي ، يأخذُ من قوّتهم شيئاً فشيئاً إلى أن انحلّت قُواهم . فطفقوا يُغادرون المناطق التي حكموها وقاتلوا دفاعاً عنها طويلاً ، إلى أن أخلوها نهائيّاً .

وعندما انهارتْ الدولةُ العثمانيّةُ مع نهاية الحرب العالميّة الأُولى كان جميعُ البارزين من أُسرة آل حماده وعائلاتهم أسرى لديها . فاستغلوا الفوضى العالقة حيث هم ليعودوا مُتسلّلين إلى بلادهم ، لينزلوا مدينة "الهرمل" شمال "لبنان"، حيث ما يزالُ أعقابُ الأُسرةِ حتى اليوم .

–

الفصل الثالث عشر

—

جبل عامل ، الفكرُ والسيفُ
في مُواجهة العثمانيين

(تمهيد)

عرفنا ممّا سبق في القسم الثاني من الفصل السابع ، أنّ أُسرةَ بني بشارة ، أعرقَ الأُسراتِ الحاكمةِ في "لبنان" على الإطلاق ، كانت أبرزَ الأُسراتِ الحاكمةِ في "جبل عامل" ، وأنّها اختفتْ من مسرح الأحداث لسببٍ غير معلوم . ورجّحنا هناك أن اختفاءَهم ذلك الاختفاءَ الغامضَ والمفاجئَ قد حصل ، بوسيلةٍ أو بغيرِها ، بسبب الاحتلال العثماني .

ومن المعلوم أيضاً ممّا سبق ، أن "جبل عامل" كان منذ ماقبل العثمانيين بقرنٍ ونصف القرن تقريباً ، موطناً لنهضةٍ فكريّةٍ جعلته أكثرَ أقطارِالعالَم الإسلاميّ قاطبةً حيويّةً فكريّةً . وأنّه في الوقت الذي كانت نسبةٌ قليلةٌ جدّاً من السُّكان في المنطقة الشاميّة يُحسنُون القراءةَ والكتابة ، كان "جبلُ عامل" وحدَه يعجُّ بالفقهاء والأدباء والشعراء والمُصنّفين في مُختلف العلوم والفنون . كما وقفنا آنفاً أيضاً على المُحاولات الرّائدة لأبرزعلماء"جبل عامل" في زمانه ، الشهيد الثاني زين الدين بن علي الجُباعي ، في سبيل ترشيد السياسة العثمانيّة

الفجّة وتحريرِها من أزمتها التاريخيّة . فكان أن ارتكبت بقتله أحد أغبى وأنكر الجرائم في التاريخ .

نقولُ كلَّ ذلك على سبيل حَبْكِ القصّة التالية بما سبقها .

(١) الأُسرات الحاكمة في "جبل عامل"

بُعيدَ الفتح العثماني لـ "الشام" كان الحكمُ في "جبل عامل" لثلاث أُسرات هي : آل علي الصغير في "بلاد بشاره" بمقاطعاتها الخمسة : "تبنين" و"هونين" وساحل "معركه" وساحل "قانا" و "مرجعيون" . وبنو صعب في بلاد الشقيف ، ومركزُها مدينة "النبطيّة". وآل مُنكَر في إقليم "الشّومر" ، وهو اليوم من أجزاء قضائي "صيدا" و"النبطيّة" ، ومركزُهُ "جُبع" . وكان الجبلُ تابعاً بحسب القسمة الإداريّة العثمانيّة لحاكم "صيدا" . ولكنّ هذه التبعيّة كانت إسميّة ، أشبه بالمرجعيّة الماليّة . فكان أُولئك الشيوخ يحكمون مناطقَ نفوذهم حكماً مستقلاً في شؤونها الداخليّة . كما أنّ الشّركةَ بين تلك الأُسرات في حُكم الجبل لم تكُن على قدم المساواة، بل كان لآل علي الصغير منزلة خاصّة مُتقدّمة . وكانت قاعدتهم في "تبنين" وقلعتِها الحصينة بمثابة العاصمة السياسيّة للجبل كلّه .

هناك مَن يعتقد أن آل علي الصغير ليسوا إلا بني بشارة . اختفوا مؤقّتاً من وجه العاصفة العثمانيّة ، ليظهروا بعد مدّةٍ قصيرةٍ باسمٍ جديد . وما من نصٍّ على ذلك . ولكنّه حَدْسٌ قويٌّ نراه يُفسّر

الاختفاءَ الكاملَ لجميع بني بشارة ، ثم الظهورَ القويَّ والمُفاجئَ لآل علي الصغير في منطقة حُكمهم نفسِها . وكلاهما أمرٌ يصعُبُ تفسيره بنفسه . من شبه المُحال أن أُسرةً كبيرةً وعريقةً ومكينةً كبني بشارة يُقضى عليها مادّياً قضاءً مُبرماً بحيث لا يبقى منها باقية ، تضيعُ مأساةُ نهايتِها العنيفة تماماً من الذّاكرة الشعبيّة على الأقل ، لو كان هناك مأساةٌ بالفعل .

ثم أنّ ظهورَ آل علي الصغير، ذلك الظهورالذي وصفناه بأنّه قويٌّ ومُفاجئ وفي منطقةِ حُكم بني بشارة نفسِها ، ليدلُّ على أنهم يستندون إلى خلفيّةٍ سياسيّةٍ قويّةٍ راسخةٍ ومُتسَالَمٌ عليها بين الناس ، وأنهم قبل بروزهم شيوخاً مُتقدّمين على بقيّة شيوخ "جبل عامل" ، لم يكونوا من عُرُضِ الناس . خصوصاً في ظلِّ وجود أُسرتيَن حاكمتين غيرها بقيتا على مكانتِهما، ولم تتأثّرا بالاحتلال العثماني . سيُسارعُ رجالُهما إلى الاستفادة من الفراغ الذي نشأ لبسط سلطانهم على منطقة نفوذها الأوسع ، لو كانت الأُسرةُ قد انتهتْ مادّياً . وبذلك لن يكونَ لأُسرةٍ عاديّة أدنى فرصةٍ للبروز على النحو الذي عرفناه لآل علي الصغير.

وممّا قد يُعزّزُ هذا الحَدْسَ تعزيزاً ما ، أنّ "بلاد بشارة" ، بل كلّ "جبل عامل" ، ظلّ يُعرَفُ بهذا الاسم حتى وقتٍ قريبٍ جدّاً ، لايزيد عن بضع عقودٍ من السنين . ولم يُهجَر إلا بعد القسمة الإداريّة

لرقعة "الجمهوريّة اللبنانيّة" الناشئة ، حيث سُمي الجبلُ "لبنان الجنوبي" ، كما هو معروفٌ اليوم .

نقولُ ذلك على سبيل التأييد مبدئيّاً لهذا الحَدْس .

(٢) "جبل عامل" الجغرافيا والتاريخ

ملاحظاتٌ عامّةٌ

ولقد كان من سوءِ حظّ "جبل عامل"، موقعَه بين "جبل لبنان" الشمالي ، "الشقيف" وامتداده ، وحُكّامِهِ من أُمراء معنيين وورثتهم الشهابيين ، وبين شمال "فلسطين" الذي كان حُكّامُه في خصامٍ شبه دائمٍ مع العثمانيين . هذا الموقع فرض على حُكّام "جبل عامل" في هذه الحقبة توازناتٍ صعبةً جداً ، بين خضوع حُكام "الشقيف" لإملاءات "استامبول" أو باشوات "دمشق" بشنّ الغارات بسببٍ وبدونِه على جيرانهم في الجبل . وبين طموحات حُكّام "فلسطين" العريضة وتحالفاتهم الخارجيّة ، خصوصاً في عهد الأمير المُغامر الشيخ ظاهرالعُمَرالصّفدي . الذي امتدت إمارتُهُ زُهاء السبعين سنة حافلةً بالنزاعات والحروب .

ولكن ، بالمُقابل ، فإنّنا نُلاحظُ أنّ زعماءَه في هذه الحقبة كانوا مُختلفين تماماً عن عامّةٍ مّن سواهم من زعماء الإقطاع في المنطقة . لم يكُن همّهم محصوراً باسترضاءِ الدولة للحصول على الالتزام ، ومن ثمّ جبايةُ الضرائب كيفما تأتّى لهم لتسديد قيمة الالتزام ، مع

فائضٍ كافٍ ليعيشوا في قصورهم الكبيرةِ عيشةً باذخةً تليقُ بأمير . ومن ذلك أنّنا لا نجِدُ في ما تركوه في "جبل عامل" مثلَ القصور الكبيرةِ التي تركها أُمراءُ "جبل لبنان" الجنوبي من معنيين وشهابيين ، ما تزالُ آثارُها حتى اليوم . ممّا يدلُّ على أنّ مساكنَ أُولئك لم تكُنْ أفضلَ بكثير من مساكن أوساط الناس من رعيّتِهم . في حين أنّهم كانوا يُنفقون بسخاء على تشييد الحصون وترميمِ القِلاع وتقويةِ وسائل الدفاع عن شعبهم أو تنمية الزراعة والتجارة . ولذلك فإنّ علاقتَهم بالناس كانت حميمةً دافئةً . كانت زعامتهُم حقيقيّةً تستندُ إلى ولاء شعبهم . ومن هنا فإنّ عقودَ الالتزام التي تُصدرُها الدولةُ العثمانيّةُ لهم لم تكُنْ إلا اعترافاً عمليّاً بهذا الأمرالواقع . ولذلك فإنّهم كثيراً ما كانوا يُناجزونها أو يمتنعون عن تجديد عقود الالتزام أو تسديد قيمته لها دون أن يخشوا غضبَها وانتزاعَ الالتزام منهم ، مثلما كانت الدولةُ تفعلُ كثيراً مع الأُمراء المعنيين والشهابيين .

ثم أنّ المُتأمّلَ العارفَ بتاريخ "جبل عامل" إجمالاً ، ليُلاحظُ أن الشأنَ والذّكرَ والحضورَ والأثرَ في هذا الطّور من تاريخه كان لأولئك الشيوخ الاقطاعيين . مع هامشٍ لعُلماء الدين يضيقُ أو يتّسعُ في علاقةٍ طرديّةٍ مع قوّةِ حضورِ هذا العالِم أو ذاك . ولكنّهم (العلماء) إجمالاً كانوا يلقون منهم أعلى التقدير، ويقفُ الشيوخُ عند رأيهم في الأزمات .

أمّا قبلُ فقد كانت قسمةُ النفوذ معكوسةً . كان الشأنُ ، كلُّ الشأن ، لعالِمِ الدين . وأمّا الاقطاعي فما كان له من ذكرٍ ولا أثر، إلا أحياناً أسماءً ضائعةً . من مثل مُقدّمي "جزّين" الخزرج . ومثل مَن يذكرهم الرّائدُ الكراجكي ذكراً عابراً في بعض كُتُبه . وجميعهم ممّن لا نعرفُ عنهم سوى هذه المعلومات البالغة الإجمال . وتفسيرُ هذه الملاحظة ليس بالأمرِ العسيرعلى قارئٍ حصيفٍ ، درّبَ عقلَهُ على فهم ضروب السلوك الأنساني ومنازِعِها ، ووعى قلبُهُ ما قُلناه آنفاً على "جبل عامل" قبل العثمانيين .

فمن المعلوم أنّ النهضةَ الأُولى والكبرى لـ "جبل عامل" قد حصلتْ على يد وبفضلِ أعمال الشهيد الأول محمد بن مكي الجزيني (ق:٧٨٦هـ / ١٣٨٤م) ، ردّاً على التداعيات السياسيّة والاجتماعيّة الكارثيّة لنكبة "كسروان" . وأنّه بنى عملَه على إنتاج المُثقّف المُنتمي (الفقيه) ، ومن ثمّ دفْعَه إلى سوح العمل التبليغي . الاجتماعي . السياسي . ممّا أدّى إلى انقلابٍ جذريٍّ على مُستوى البُنية الاجتماعيّة ومضمونِها الثقافي ، من مستوى التشيّع الشّامي الباهت والخامد ، إلى مستوى التشيّع الفكري الذي نما وشبّ في مدرستَي "بغداد" و"الحلّة" على التوالي . وباستثناء النهاية العنيفة لبطل النهضة ، فإن ميدانَ عمله لم يُعانِ من كبير سوء . بل استمرّ مشروعُهُ عاملاً مُنتجاً من بعده بقوّته الذّاتيّة مدّةً تزيدُ على القرنِ ونصف القرن من بعده .

في هذا المُناخ فإنّ من الطبيعي أن يكون لعالِمِ الدين الموقعَ الأوّلَ في مجتمعه . وأن يكون للشيوخ الاقطاعيين المحلّ الثاني .

امّا في الجو المُحتدم الذي نشأ بالاحتلال العثماني ، فقد كان على "جبل عامل" أن يتعاملَ مع العقل الخشبي للمُحتلّين ، وأن يحملَ وِزرَ أزمتهم التاريخيّة . وقد رأينا فيما فات كيف عملَ أبرزُ فقهاء "جبل عامل" في زمانه ، الشهيدُ الثاني ، كلّ ما في وُسعه فرداً لترشيد السياسة العثمانيّة القاصرة الغبيّةِ دون جدوى ، ولحمايةِ النهضةِ في وطنه . وكيف دفع حياتَه ثمناً لمسعاه البطولي.

بعد هذا لم يبقَ أمام رجال "جبل عامل" إلا المُواجهة . بالسياسةِ حتى تستنفدَ طاقتَها وإمكاناتِها ، فبالقتال على سبيل الدفاع عن النفس ، طالما لم يبقَ في اليد أيَّ خيارٍ آخَر .

في هذا المُناخ فإنّ من الطبيعي أن يكونَ لرجالِ السياسةِ والحربِ الموقعَ الأوّل في مجتمعهم ، ويكون لرجال العلم الموقع التالي . ودائماً كانت الحربُ مِرقاةَ قادتِها وأبطالِها ومُسعري نارِها إلى المواقع الأُولى .

بهذا التحليل نُلخّصُ جانباً هامّاً من تاريخَ "جبل عامل" طوالَ الحقبة العثمانيّة . ولكنّنا ، طبعاً ، لن نقِفَ عند هذه الصورة البالغة الإجمال . وأيضاً لن نُغرقَ عملنا في سرد تفصيلاتِ ضروبِ المواجهةِ بين رجالِ الجبلِ وصنائعِ العثمانيين . ممّا قد يجدُهُ القارئُ في المُطوّلات ، على اضطرابِها وضعفِها المنهجيّ . وعليه فإنّنا

سنتّخذُ طريقاً وسطاً ، بأن نجعلَ من سيرةِ وأعمال أحدِ أعرفِ أبطالِ هذه الفترة في السياسة وفي الحرب أُنموذجاً ، يكفي أن يحتذيه القارئُ في ذهنه ، لمنحه صورةً وافيةً للحقبة ، بمقدار غرضِ هذا الكتاب ، ذاك هو :

(٣) الشيخ ناصيف النصّار

وهو من أُسرةِ علي الصغير، وثاني أميرَين كبيرَين عرفهما تاريخُ "جبل عامل" ، بعد جدّه البعيد المؤسّس حسام الدين بشارة . إن صحّ أن الأُسرتيَن واحدةٌ ، وفقاً لِما قادنا إليه الحدسُ قبل قليل .

يُطبقُ المؤرّخون ، من عربٍ وغيرهم ، على وصف الشيخ ناصيف بكل جميل . ويصفُ مؤرخو "جبل عامل" عهدَه بأنّه أزهى عهوده . عملَ كلَّ ما في وُسعه على بسط السلام مع جيرانه ومع رجال الدولة . فلما أبوا إلا المضيّ في سياسة البطش والغطرسة ، عمل على توحيد كلمة شيوخ الجبل . ثم خاض ضدّ أُولئك سلسلةً طويلةً من المعارك المتوالية . فلم ينهزم في معركةٍ قط ، بل انتصر في حروبه كّلها. ومنها معاركُ خاضها ضد عدوٍّ يفوقُ عسكرَه بأضعافٍ مُضاعفةٍ عُدّةً وعدداً . على الرغم من شحّ موارد بلاده ، وقلّةِ عديدِ أهلِها بالقياس إلى عديد أعدائه الكثيرين . ذلك بأنه نجح في تنظيم شعبه ، ومعظمه من المُزارعين الفقراء ، بحيث يمتشقون السلاح ويغدون جنوداً أشدّاء عندما يدعوهم الدّاع . ليعودوا من بعدُ

إلى العمل في حقولِهم ومزارِعِهم . وهكذا دواليك . وكان إذا حزّ به كبيرُ أمرٍ جمعَ علماءَ الدين واستشارهم فيما يفعل . ويُقالُ أنّه قصدَ يوماً بموكبه قرية "عيناثا" زائراً للسيّد محمد الأمين، أبرزِ علماءِ "جبل عامل" في زمانه ، فوجده يعمل مع بنّاء في إقامة جدارٍ بمنزله . فنزل عن صهوة جواده وقبّل يدَ السيّد ، وأبى إلا أن يعملَ معه في تقديم الطين والحجر.

استشهد الشيخ ناصيف يوم الاثنين ٥ شوال ١١٩٥هـ / ٣ أيلول ١٧٨١م . خرج مُتعجّلاً على رأس بضع مئات من رجاله لصدّ عسكرٍ كبيرٍ للجزّار قادمٍ للغارة على "جبل عامل" . فالتقى به في قرية "يارون" . وهناك دارتْ المعركةُ إلى أواخر النهار ، وبدأتْ مخايلُ النصر تلوح ، وقُتل ثلثُ عسكر الجزّار . لكنّ ما قلبَ ميزانَ الحرب ، أنه أثناء المعركة زلِقَ به جوادُه على صخرةٍ سطحيّةٍ واسعة ، معروفةٍ حتى اليوم باسمه (صخرة ناصيف)

صخرةُ ناصيف

فسقط وعوجل برصاصةٍ قاتلةٍ في رأسه ، فوقعت الهزيمة . ودخل عسكرُ الجزّار بلادَ بشارة وشرعَ بهدم القلاع والحصون التي صرفَ أهلُ "جبل عامل" عشرات السنين في بنائها وتدعيمِها .

ولقد ظلّ أهل "جبل عامل" مدّةَ تقرُبُ من قرن يفتتحون كل عزاءٍ بميتٍ منهم بعزاء الشيخ ناصيف . إلى أن أفتى أحد علماء الدين بحُرمة ذلك ، كي لا يتحوّلَ شعيرةً دينيّة . فكفّ الناسُ بعدها عمّا درجوا عليه .

(٤) ما بعدَ الشيخ ناصيف

المأساة والبطولة

تلتْ شهادةَ بطلِ "جبل عامل" فترةٌ مُظلمةٌ . الرجالُ يؤخذون بالمئات إلى "عكّا" حيث يعملون بالسُخرة إلى أن يموتوا من الإرهاق . والأموالُ والسلاح والخيولُ تُصادَر. والنساءُ والأولادُ يُباعون بأرخص ثمنٍ في سوق النخاسة. ومن سلِم من الرجال التجأ إلى بلاد "بعلبك". وأمّا المكتبات الكثيرة فقد نُقلتْ هي الأُخرى إلى "عكّا" حيث جُعلت وقوداً لأفرانِها . ومنها ما سارع أصحابُها إلى دفنها داخل الجدران أملاً بإنقاذِها ، فأتلفتها الرطوبة والحشرات .

ومع ذلك ، مع كلِّ هذه النكبات والمِحن ، وقتلِ القادةِ والمُقاتلين وتشتيت مَن سلِمَ منهم ، والافتقارِ الشديدِ إلى الرجال والسلاح ، . فإنّ "جبل عامل" لم يُطأطئ رأسَه ولم يخضع . بل

كان من رجالِه ، ومنهم مَن هم من أبناء الشهيد ناصيف ، مَن نظّموا حربَ عصابات ، دخلَ أبطالُها التاريخ تحت اسم (الطِّيّاح) ، يعني الذين لا يستقرّ بهم مقام ، بل هم في حِراكٍ دائمٍ وفقاً لمُقتضياتِ هذا النمط من الحرب . استمرّتْ رُبع قرن ، بحيثُ أعجزتْ الدولةَ ، واضطرتها فيما بعد إلى تسويةٍ سياسيّة .

في عهد سليمان باشا ، والي "عكّا" بعد وفاة الجزّار (ت:١٢١٩هـ/١٨٠٤م) ، وهو نقيضُ سلفه في كل شئ ، . حظي "جبلُ عامل" بفترةٍ من الاستقرار والازدهار النسبي ، بفضل سياسة هذا الوالي الرّشيدة نسبيّاً ، ولذلك عُرف بـ (العادل) .

أثناء فترة ولايته التي طالت مدّة خمس عشرة سنة (١٢١٩ . ١٢٣٥هـ/١٨٠٤. ١٢١٩م) عملَ سليمانُ باشا العادلُ على إصلاح ما أفسده الجزّار . ربما ، بل على الأرجح ، خضوعاً لضغطِ صيتِ ثورة (الطُّيّاح) التي أنهكتْ الدولة فيما سبق . يؤيّدُ ذلك أنّ "إستامبول" أرسلت أحدَ كبار موظفي وزارة خارجيّتها ليعاونَ الوالي ، أو بالأحرى ليُشرفَ على التسوية السياسيّة مع الثائرين . وهذه سابقةٌ من الدولة العثمانيّة .

نظّم الاثنان اجتماعاً للمفاوضة مع فارس بن ناصيف النّصّار وابن عمّه محمد بن محمود النّصّار. في بدء المُفاوضة طلب هذان إعادةَ "جبل عامل" إلى مشايخِه التاريخيين . فأُجيبا بأن هذا غير ممكن بعد أن أُدخلتْ البلادُ في واردات الخزينة منذ خمسة عشر

عاماً . وبالنتيجة تمّ الاتفاق على إعطاء الأُسرات الثلاث إقليم الشومر بكامله ، على أن تكون مُعفاةً من الضرائب تجاه الخزينة . وعلى أن يتقاضى رئيسُ المشايخ فارس بن ناصيف راتباً سنوياً مقداره مائتا كيس ، تخرجُ من خزانة "عكّا" . كما تُدفعُ له وارداتِ منطقة "مرجعيون" السنويّة بأكملِها . بل إن الدولة منحت الشيخ فارس قرية "الزّريريّة" . وشادت له فيها أبنيةً مُناسبةً لمكانته كحاكم ، من ضمنها سراي للحكم ، سكنها مع ابن عمّه محمد المحمود . وجمعا في نطاقِها كلَّ مَن بقي من آل علي الصغير ومُنكر وصعب .

والقارئُ الذي رافقنا في الفصليَن الأخيريَن ليُلاحظ أنّ هذه الخطوة غريبةٌ وفريدةٌ من الدولة العثمانيّة وعقلها السياسي . من الواضح أنّها لم تُقدم عليها إلا مُكرهَةً . بعد أن تمثّلتْ ثورةَ (الطِّيّاح) التي ثبتتْ مدّة خمسةٍ وعشرين سنة .

ولقد كان من حميدِ أثرهذه التسوية السياسيّة أنّها منحتْ "جبلَ عامل" زُهاء نصف قرن من الاستقرار النسبي. انصرفَ أبناؤه أثناءَها إلى عِمارةِ ما خربته سياسةُ الجزّار الوحشيّة . فشيدتْ الأبنية وغُرستْ الأشجار واستُصلحتْ الأراضي . ولم تنهدم هذه الفترة إلا بتأثير مُتغيرٍ سياسيٍّ كبيرٍفي المنطقة ، هو قدوم العسكر المصري ، بقيادة إبراهيم بن محمد علي باشا حاكمُ "مصر" ، إلى المنطقة . وبَسْطِ سُلطتهِ على أجزاءٍ واسعةٍ من "سورية" .

(٥) تحت تأثير المغامرة المصريّة

فترةُ حَمَد البيك

سنة ١٢٤٧هـ/١٨٣١م وقف عسكرُ إبراهيم باشا عند أسوارِ مدينة "عكّا" . بعد أن كان قد مهّدَ سياسيّاً لمُغامرته العسكريّة بالتحالف مع الأمير بشير الشهابي . وطال حصارُ المدينة الحصينة سبعة أشهر، على الرغم من قوّة مدفعيّة إبراهيم . نهضَ أثناءَها حَمَدُ البيك ابن محمود بن نصّار، الذي سيغدو زعيمَ "جبل عامل" في ربع القرن القادم ، بعسكره لنجدة المدينة المُحاصَرة . وخاض معركةً ضدّ القوّات المصريّة خارجَ "عكّا" ، كانت نتائجُها معروفةً سلفاً ، بالنظر للفارق الكبير بين القوّتيَن عديداً وتسليحاً .

بهذه الحركة ، التي اتسمتْ بقدرٍ كبيرٍ من الفروسيّة وبغياب الحسابات العسكريّة الدقيقة ، عاد "جبلُ عامل" إلى دوّامة العنف. فغادره أبرزُ زعمائه . وتسلّطَ عليه حليفُ إبراهيم الأميرُ بشيرالشهابي ، الذي ساسهُ بقسوةٍ تُذكّرُ بفترة الجزّار. بيدَ أنّ هذه الحال لم تطُل ، بفضل الثورة التي قادها الشيخ حسين بن شبيب الصعبيّ وقُتل ضحيّتَها . وهي المُبادَرَةُ الوحيدةُ من هذا الحجم لزعيمٍ عامليٍّ من غير أُسرة علي الصغير ، ولكنّها كانت مُذكّراً كافياً بثورة (الطِّيّاح) . ممّا دفع إبراهيم باشا إلى رفْعِ يد حليفه عن "جبل عامل" ، مع عرْضٍ على شيخه حَمَد البيك بأن يعودَ إلى بلاده

وموقعه ، على أن يخضعَ لحُكمه ويواكبه في سياستِه فأبى .

على الأثر عمدَ إبراهيم باشا إلى اتخاذِ عدّة إجراءات : أمرَ بجمع السلاح من الناس كافّة ، وفرضَ التجنيدَ الإجباري والسُّخرةَ على العموم ، وضاعفَ الضرائبَ حتى خربَتْ البلاد .

في الأثناء قبعَ حَمَدُ البيك مُنتظراً الفرصةَ السياسيّةَ المُناسبة. التي سرعان ماواتتهُ باتفاق الدُّوَل الغربيّة على إعادة محمد علي باشا إلى حجمه السابق ، الذي يتضمّن انتزاعَ "سوريّةَ" منه . وما أن علمَ بوصول طلائع الجيش العثماني إلى "حلب" ، حتى رفع رايةَ الثورة على المصريّين .

جمعَ حمدُ البيك مَن استطاع جمعَهم من المقاتلين العامليين . وبعد أن صدّ بهم عند "جسر القاقعيّة" عسكراً بقيادة مجيد ابن الأمير بشير كان يتجّهُ للهجوم على "جبل عامل" ، سار بجُنده إلى "حمص" حيث انضمّ إلى الجيش العثماني . فشاركَ بعددٍ من المعارك في "حمص" و "نَزَب" و"قونيه" . وعلى الرغم من أنّ الجيشَ العثمانيَّ لم ينتصر في أي معركةٍ من تلك المعارك ، فإن ما أظهرَه حَمَد البيك من بسالةٍ وحُسن تدبير جعل الدولةَ تُنعم عليه بلقب (شيخ مشايخ بلاد بشاره) . وعهدتْ إليه بمُطاردة مَنْ منَ العسكر المصري في "جبل عامل" و "فلسطين" . فخاض معه عدّة معارك في "رْمَيْش" و "وادي الحبيس" قُرب "عكّا" وفي "شفا عمرو" . ودخل "صفد" و"طبريّا" و "النّاصره" . فأجلى مَن بها من عسكر المصريين . وعيّنَ على كلٍّ منها مُتسلّماً من قِبَله .

ارتفعتْ مكانةُ حمد البيك . واستقرّ في "تبنين" عاصمة "جبل عامل" التاريخيّة ، مُحاطاً بثُلّةٍ من شيوخ أُسرته ، منهم علي ومحمد الأسعد . وهم سلفُ بطنٍ من الأُسرة مايزالُ يحمل اسم (الأسعد). وغدت "تبنين" في زمانه شبهَ بلاطٍ يقصده الشعراءُ من "لبنان" و "فلسطين" بشعرهم رجاءَ نوالِه . كما تلقّى إنعاماتِ الدولة العثمانيّة ، إلى جانب هدايا شاه "إيران" . وهذه سابقةٌ من هذه الدولة . وهو أوّلُ من اعتمر الطربوش التركي وتلقّبَ بـ (البيك) من أُسرته تشبُّهاً بالسلطان عبد المجيد . وهذه أيضاً سابقةٌ ، تدلُّ على العُمق الذي وصلتْ إليه حالةُ التماهي مع العثمانيين . إلى أن توفي سنة ١٢٦٩هـ /١٨٥٢م .

نجح حَمَدُ في بسْط السّلم وتوطيد الأمن في بلده وإن تحت الرّاية العثمانيّة البغيضة . الأمر الذي لم يُتحهُ الظرفُ السياسيُّ من قبلُ لجدّه ناصيف ، على الرغم من سعيه الحثيث إليه بكافّة الوسائل ومع جميع الأطراف المحلّيين ، كما عرفنا . والحقيقةُ التي يُمكنُ للمتأمّل أن يكتشفَها دون صعوبةٍ ، أن الفارق بين الاثنين لم يكُن في النهج والمُخيّلة السياسيّة ، وإنّما في الظروف السياسيّةِ المُحيطة . ففي أيّام حَمَد كانت الدولةُ العثمانيّةُ في وضعٍ صعبٍ . وصل إلى حدِّ تهديد الكيان ، لولا مُسارعةُ القوى الغربيّةِ إلى نُجدتِها . ليس حبّاً بها وحِرصاً على مِنعتِها . وإنّما خشيةَ ظهورِ قوةٍ إسلاميّةٍ جديدةٍ قويّةٍ تحِلُّ محلَّ الرجل العثماني المريض . كانت مصلحةُ الدُّول الغربيّة

في بقاءِ الدولة العجوزالضعيفة ، ومنْعِ ظهور دولةٍ إسلاميّةٍ شابّةٍ قويّة . في هذا الظّرف تحرّرتْ الدولةُ مؤقّتاً من أزمتِها التاريخيّة وذهنيّةِ الغطرسة ، التي كانت في ذروتِها أيامَ ناصيف . أضِفْ إلى ذلك أن انحيازَ الأمير بشير إلى جانب المصريين حيّدَ مؤقّتاً أيضاُ التأثيرَ السياسيَّ المحلّي المُحبط ، الذي كان وراءَ الكثير من مآسي"جبل عامل" . ولقد رأينا كيف التقطَ حَمَدُ هذه المُعطيات ، وبنى عليها سياستَه ، وبذلك نجحَ نجاحاً غير مسبوق . بحيثُ منحَ بلدَه مدّةَ عقدين تقريباً من الأمن والسلام .

(٦) ما بعد حمد البيك

كلُّ ذلك انهدمَ مع وبوفاة الشيخ حَمَد . المغامرةُ المصريّةُ انتهتْ بمعاهدة "كوتاهيه" الشهيرة بين الباب العالي ومحمد علي ، التي جرى التوقيعُ عليها بالإشرافِ التامّ للدُّوَل الغربيّة . ومنحتهُ (محمد علي) ولايةَ "مصر" وراثةً ، فضلاً عن كامل "سوريّة" . ولكنّ الرفْضَ القاطعَ لأهلِها لسُلطته ، بمَن فيهم أهل "جبل عامل" ، اضطرّه إلى إخلائِها . وبذلك استراحتْ الدولةُ من همّها ، فعادتْ توّاً إلى طبيعتِها . ثم أتتْ وفاةُ حَمَد البيك لتُطلقَ يدَ شيوخِ أُسرته الكثيرين في فرْضِ صنوف الضرائبِ على الناس لمصلحتهم ، بالإضافةِ إلى ضرائبِ الدولة المُجحفة . ممّا أدّى إلى أن أصبحَ الناسُ يعيشون على حافّةِ المجاعة .

والقارئُ العارفُ المُدقّقُ في بعض التسجيلات المحلّيّةِ على تلك الفترة ، لتروعهُ التنويهاتُ الساذجةُ بالإنعاماتِ الكبيرةِ لبعض الأُمراء على الشعراء وغيرهم ، والهدايا الثمينة التي كانوا يقدّمونها في المناسبات ، والأعراسِ الباذخةِ لبعض أبنائهم . فضلاً عن الاهتمام ببناء القصور وتزيينها خلافاً لأسلافِهم . دون الالتفات إلى أنّ كلَّ هذه كانت على حساب الناس الفقراء. وكلُّه ممّا لم يُعهَد من قبل في سِيَر زعماءِ "جبل عامل" .

كان من التأثير السياسيّ لهذه الحال ، أن وقعَ الانفصامُ التّامُّ بين الحاكمين والمحكومين . وربما كان من عقابيلِ ذلك أن غابَ الأُنموذجُ التاريخيُّ للفلاّح . المُقاتل ، الذي رأينا كيف كان يتركُ أرضَه ومحراثَه ليمتشقَ سلاحَه بمُجرّد سماعه المُنادي ، وليخوضَ أعنفَ المعاركَ دفاعاً عن أرضِهِ وشعبِها وينتصر. هو ذا ما صنعَ التاريخَ المجيدَ لـ "جبل عامل" منذ أيّام أوّلِ أميرٍ عامليّ ، الأميرُ حسام الدين بشاره (ت:٥٩٨هـ /١٢٠١م) . والحقيقةُ أنّ عسكرَ حَمَد هو آخرُ عسكرٍ عامليّ شعبيّ نعرفهُ في تلك الفترة . بحيثُ أنّنا لا نجدُ من بعدُ زعيماً عامليّاً واحداً ينهضُ ويستنهضُ للدفاع عن بلده وعن حقوقِ وكرامةِ بلدهِ وأهليه ، كما كان أسلافُهُ يفعلون . والحقيقةُ أيضاً أنّ هذا الانحدارَ قد بدأ بسياسةِ المُهادنَةِ إلى حدِّ الخضوع التي اتّبعَها حَمَدُ البيك مع السُلطةِ العثمانيةِ . ولكنّ حضورَهُ القويَّ وإرثَهُ

الأخلاقيَّ ضبطَا الأُمورَ مع الناسِ عند حُدودٍ مقبولةٍ نسبيّاً . بيدَ أنّ أخلافَهُ ورثوا عنه سياسَتَه الخارجيّةَ دون سيرته وسيرة أسلافه .

(٧) ختامٌ وعهد

هكذا بدأتْ فترةٌ مظلمةٌ مُدلهمّةٌ من تاريخ الشيعة في "جبل عامل" وغيره . عانى فيها الإنسانُ من صنوفِ الاضطهادِ والظلمِ والبطش مالا يوصَف. خصوصاً في الأيّام الأخيرة للحُكم العثماني . واستمرّتْ من بعدُ بمستوىً أو بغيره مع تبدُّل الدُّوَل : الاستعمار الفرنسي تحت العنوان الخادع (الانتداب) . وما تمخّضَ عنه من قيام الدولة اللبنانيّة تحت اسم " لبنان الكبير"، فالجمهوريّة اللبنانيّة . ثم بفاصلٍ زمنيٍّ قصيرٍ احتلالُ "فلسطين" وتداعياتُه القاسية المُتوالية خصوصاً على أهل "جبل عامل" . الأمرُ الذي وضعَ الناسَ أمامَ خيارٍ وحيدٍ ، مثلما حدثَ تاريخيّاً غير مرّةٍ ، هو أن يأخذوا المُبادرةَ باتجاه **المقاومة** . بعد أن ثبتَ لديهم مِراراً وتكراراً عجزُ الدولة ، لأسبابٍ سياسيّةٍ تتصلُ بمفهومِها الضيّقِ للوطن ، عن الدفاع عنهم .

ولكنّ هذه المتواليّة قصّةٌ تستحقُّ أن تُروى بكاملِ تفاصيلها في عملٍ مُستقلٍّ .

إذن ، فليتقبّلْ منّي القارئُ هذه الإشارات بمثابة دعوةٍ لقراءةِ كتابي القادم إن شاء الله .

—

الفهارس التحليليّة الشاملة

—

فهرست تحليلي شامل

للأعلام عموماً من أشخاص وأسرات وفِرَق وطوائف وجماعات وبلدان ومناطق ومعالم جغرافية وطبوغرافية ودُول، منسوقةٌ أبتثيّاً . وقد أخذنا في النّسق كلمات أب ، إبن ......الخ.

(أ)

(ت)

(ج)

(ش)
